

عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

تنوع الرؤى في شعر نزار قبّاني؛
دراسة تفكيكية

محمد عبد الهادي عبد القادر رمّاحة

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1435هـ/2014م

تنوع الرؤى في شعر نزار قبّاني؛
دراسة تفكيكية

إعداد

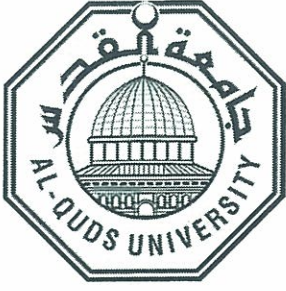
محمد عبد الهادي عبد القادر رمّاحة

بكالوريوس في اللغة العربيّة وآدابها من جامعة بيرزيت/ فلسطين.

المُشرف: أ. د. خليل عودة

قُدِّمَت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة
وآدابها من دائرة اللغة العربيّة/ عمادة الدّراسات العُليا في جامعة القدس.

1435هـ/2014م



جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
برنامج الماجستير/ دائرة اللغة العربية

إجازة الرسالة

تنوع الرؤى في شعر نزار قبّاني؛
دراسة تفكيكية

الاسم: محمد عبد الهادي عبد القادر رمّاحة
الرقم الجامعي: 21010206

المُشرف: أ. د. خليل عودة

نوقِشتْ هذه الرسالة وأجيزتْ بتاريخ 2014/12/20 من أعضاء لجنة المناقشة المُدرّجة
أسماءهم وتوافقهم:

1- الأستاذ الدكتور خليل عودة، رئيس لجنة المناقشة
2- الدكتورة بنان صلاح الدين، مُمتحنةً داخليّةً
3- الدكتور عمر عتيق، مُمتحناً خارجياً

التوقيع:
التوقيع:
التوقيع:

القدس - فلسطين

1435هـ/2014م

الإهداء

إلى مَنْ غَادَرَتْ رُوحُهُ مُطْمَئِنَّةً، وَآبَتْ إِلَى رَبِّهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ... وَالِدِي، رَحِمَهُ اللهُ.

إلى مَنْ أَمَسَكَتِ الْقَلَمَ مَعِي مِنْ أَوَّلِ السَّطْرِ، وَبَقِيَتْ تَرْقُبُنِي فِي كُلِّ السُّطُورِ ... إِلَى مَنْ ظَنَنْتُهَا حَلْمًا جَمِيلًا، فَوَجَدْتُهَا حُضُورًا ... أُمِّي، حَفِظَهَا اللهُ.

إلى مَنْ تَكَسَّرَتْ مَعَهُمُ الْمَسَافَاتُ ... إِلَى مَنْ سَكَنُوا أَعْمَاقَ الْأَعْمَاقِ ... زَوْجَتِي وَابْنَائِي، أَدَامَهُمُ اللهُ.

إلى اللَّمَّاحَةِ الْعَالِيَةِ ... صَاحِبَةِ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ ... شَقِيقَتِي الْكُبْرَى، رَعَاها اللهُ.

أَقْدِمُ هَذَا الْعَمَلَ عِرْفَانًا وَتَقْدِيرًا مَنِّي عَلَى مَا بَدَّلُوهُ مِنِّي أَجْلِي ... وَأَنَا لَا زِلْتُ أُشْعِرُ مَعَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ.

محمَّد عبد الهادي عبد القادر رمّاحة

الإقرار:

أقر أنا مُعدُّ الرِّسالة بأنَّها قُدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير في اللغة العربيَّة وآدابها، وأنَّها نتيجة أبحاثي الخاصَّة، باستثناء ما تمَّت الإشارة إليه حيثما ورد، وأنَّ هذه الرِّسالة، أو أي جزء منها، لم يُقدِّم لأي جامعة أو معهد لنيل درجة عليا.

التوقيع:

الاسم: محمَّد عبد الهادي عبد القادر رمّاحة

التاريخ: 2014/12/20

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ ... لَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ، وَلَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَى ...

أَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ لِلأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ خَلِيلِ عَوْدَةَ عَلَى بَدَلِهِ وَعَطَائِهِ الْمُتَوَاصِلِ ... أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُدِيمَهُ عَوْنًا لِطُلَّابِ الْعِلْمِ السَّاعِينَ لِبَلُوغِ الْحَقِيقَةِ.

كَمَا وَأَشْكُرُ عِمَادَةَ الدَّرَاسَاتِ الْعُلْيَا، وَدَائِرَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - شَرِيانَ الْحَيَاةِ النَّابِضَ فِي قَلْبِ جَامِعَةِ الْقُدْسِ - لِدَوْرِهِمَا الطَّلِيْعِيِّ فِي حِصَانَةِ الْمَشَارِيحِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَخْرِيجِ آلَافِ الأَبْحَاثِ الْمُتَقَدِّمَةِ ... وَلَا زَلَّتَا.

وَالشُّكْرُ كُلُّ الشُّكْرِ إِلَى مَنْ غَمَّرُونِي بِعِنَايَتِهِمْ وَحُبِّهِمْ، وَلَمْ يَبْخُلُوا بِالذُّعَاءِ ... حَتَّى تَمَّ التَّوْفِيقُ مِنْ اللَّهِ.

المُلخَص

تقومُ هذه الدِّراسةُ على قراءةِ القيمِ العُلَيَا التي تُضيئُها نصوصُ نزارِ قبَّاني الشَّعْرِيَّةِ، والتي تُمَثِّلُ الأيديولوجيَّاتِ والرُّؤى القابِعةَ في تلكِ النُّصوصِ، وذلكَ من أجلِ الوقوفِ على تلكمِ الرُّؤى، ومُلاحظةِ مدى تنوُّعِها، ولِما لهذا العَمَلِ من أهميَّةٍ في الكَشْفِ عَن كُنْهِ الشَّعْرِ النَّزَارِيِّ، ضِمْنَ قِراءَةِ قِراءةٍ شاملةٍ، ترسُّمُ له صورةً جَدِيدَةً، وتَضَعُهُ في مَكَانِهِ الصَّحِيحِ.

ومِمَّا دَفَعَنِي لِعَمَلِ هذه الدِّراسةِ الرَّغْبَةُ في تَجَاوِزِ الانطِباعِ والأحكامِ الإجماليَّةِ العاجِلةِ، التي اجتمَعَتِ عِنْدَ عَيِّنَةٍ مِنَ النُّقادِ حَوْلَ شَعْرِ نزارِ، وإِضَاءَةِ مساحاتٍ أُخرى فيه غيرِ تلكِ التي استمرَّ الدَّارسونَ يُحَلِّقونَ حَوْلَها.

وهذه الدِّراسةُ نَتاجُ قِراءةٍ واسِعَةٍ، جَرَتْ وَفَقاً للمنهجِ التَّفكيكيِّ، الذي تُشكِّلُ إِجراءاتُهُ استراتيجيَّاتِ، تسعى إلى قِراءةِ النُّصوصِ الأدبيَّةِ وتَفكيكِها، ثُمَّ بِناءِ نصوصٍ جَدِيدَةٍ وَفَقاً لمرجعيَّاتِ القارئِ الفِكريَّةِ والمعرفيَّةِ، ولِما تُحدِثُهُ تلكِ النصوصُ الأدبيَّةُ في نَفْسِهِ من رَدَّاتٍ وتفاعِلاتٍ. وفعلُ التَّفكيكِ يُتطلَّبُ قِراءاتٍ عَدِيدَةً: قِراءاتٍ أُولَيَّةٍ تُحَقِّقُ فِهْمًا مُسبِقًا قَبْلَ التَّفكيكِ الفِعليِّ، وقِراءاتٍ تَفكيكيَّةٍ تُنشِطُ فيها المَعاني وتُقَدِّمُ مَعاني تَأويليَّةً غيرَ مُنتهيَّةٍ. لِذلكِ تكونُ النُّصوصُ المُنتِجَةُ تَأويلًا مُشتمِلًا نِسبيًّا على الشَّرْحِ والتَّحليلِ، كإِجراءينِ يُشكِّلانِ مَعَهُ استراتيجيَّةً من استراتيجيَّاتِ التَّفكيكِ.

ومن نَتاجِ هذه الدِّراسةِ أَنَّها استثمرتْ مَنهجًا نَقديًّا مُعاصِرًا، هو المَنهجُ التَّفكيكيُّ، ضِمْنَ طَرِحِ اجتهَدتْ في إيضاحِهِ، وإِزَالَةِ ما اعتراهُ من لَبْسٍ وغموضٍ. ومن ثَمَّ أَفادتْ من إِجراءاتِهِ؛ فارتقتْ بِهِ إلى واقعِ تطبيقيٍّ يَنسَعُ لِقِراءاتٍ غيرِ مُنتهيَّةٍ.

كَذلكِ أعطتْ الدِّراسةُ شِعْرَ نزارِ أبعادًا أُخرى، هِيَ تلكِ الأيديولوجيَّاتِ والرُّؤى التي أفرزتها قِصائِدُهُ، حتَّى بَدَأَ من السَّهْلِ إِبصارُها، وإِبصارُ الحقائقِ التي يَنطوي عليها شِعْرُهُ.

ومن نَتاجِها أيضًا أَنَّها أثبتتْ تنوُّعَ الرُّؤى، وقُوَّةَ الأيديولوجيَّاتِ، التي تحملُها النصوصُ الشَّعْرِيَّةُ النَّزَارِيَّةُ.

وقد جمعت الدراسة ما تشظى من قيم عليا، وتوزع على حصيلة أكثر من خمسين عاماً من الشعر، حتى غدا من السهل الوقوف على مجموعة القيم، التي تنتظم في موضوع معين.

من أجل ذلك، أوصي بعمل دراسة مقارنة، في واحد من الموضوعات التي أفرزتها الدراسة بين شاعرين أو أكثر، كذلك أوصي بعمل دراسة تتناول موضوع الصمت في الشعر، تستند إلى ما أطلقه نزار في هذا الموضوع الرشيق.

والله المستعان ...

The Diversity of Revelations in the Poetry of Nizar Qabbani

Prepared by: Muhammad Abdul Hadi Abdul Qader Rammaha

Supervisor: Prof. Khalil Odeh

Abstract:

This study is based on the sublime values that are illuminated by the poetic texts of Nizar Qabbani, which represent the ideologies and revelations that lurk into these texts, in order to identify such revelations, observe the extent of its diversity and examine the significance of this work in unmasking the truth of Nizarian poetry; through a comprehensive reading of his poetry that will draw up a new picture that will place it in its correct place.

The desire to go beyond expedite but generalized impressions and judgments, shared by some critics over the poetry of Nizar Qabbani, has urged me to form this study in order to shed light on aspects other than those which researchers have always flatten out.

This study is a product of extensive reading carried out in accordance with the “deconstructive approach”, whose procedures constitute strategies that seek to read and deconstruct literary texts then re-form new ones in accordance with the reader’s intellectual and cognitive references and based on the actions and reactions which are elicited by these literary texts. Deconstruction requires numerous readings: preliminary readings which realize an initial comprehension before actual deconstruction, and deconstructive readings wherein meanings are fragmented and an infinite number of interpretative meanings are presented. Thus, product texts are interpretations relatively comprised of explanations and dissections of the text as two procedures that along with the interpretation constitute one of the strategies of the deconstructive strategy.

One of the yields of this study is that it introduced a critical contemporary approach, i.e. the deconstructive approach, within a theory it endeavored to clarify removing thereof all ambiguities and opacities, transferring it then from the scope of theorizing to the reality of practice and actual application.

Moreover, this study has added additional dimensions to the poetry of Nizar Qabbani, that is, those ideologies and revelations tackled by his poems which have become as easy to envisage as the truths inherent in his poetry.

Another of its yields was that it proved the diversity of the revelations and the power of the ideologies inherent in the Nazarian poetic texts.

Furthermore, the study has pieced together the fragmented higher values which had been distributed over the product of fifty years of poetry until it became possible to examine the set of values which fall under a specific topic.

Therefore, I request the investment in the brought forth by this study by forming a comparative study in one of the topics produced herein between two poets or more. As I also recommend that a study be made addressing the topic of silence in poetry based on the set forth by Nizar in this graceful topic.

المُقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على نَبِيِّهِ المَبْعُوثِ رَحْمَةً للعَالَمِينَ، وعلى آلِهِ، وصَحْبِهِ،
وَمَنْ سارَ على نَهْجِهِ بِإِحْسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وبعَد:

فَهذِهِ دراسةٌ تقومُ على قِراءةِ القِيمِ العُلْيَا القابِعةِ في نصوصِ نزارِ الشَّعْرِيَّةِ، والتي تُمَثِّلُ الخُلاصاتِ
والرُّؤى التي تُشعُّ بها تِلْكَمُ النُّصوصُ. ولعلَّ أهميَّةَ هذهِ الدِّراسةِ تأتي من كونها عملاً شاملاً، قَصَدْنَا
به بناءَ تصوُّراتٍ جديدةٍ حولَ قِصائدِ الشَّاعرِ، ضِمْنَ قِراءتها قِراءةً كاملةً، ابتداءً من أوَّلِ قِصيدةٍ،
وانتهاءً بأخِرِ قِصيدةٍ، لما لهذا الفِعلِ من أثرٍ كبيرٍ في رسمِ صورةٍ واضِحةٍ لشعرِ نزارِ، ووَضَعِهِ في
مَكَانِهِ الصَّحيحِ.

ومن الأسبابِ التي دَفَعَتني لِعَمَلِ هذهِ الدِّراسةِ الرَّغْبَةُ في تجاوزِ التَّصوُّراتِ الانطِباعيَّةِ، التي شكَّلتْ
رأيَ عَدَدٍ من النُّقادِ حولَ شعرِ نزارِ، وإبرازِ جوانِبَ أُخرى فيه، غيرَ تلكَ التي ظلَّ الدَّارسونَ
يَدورونَ حولها، عبَّرَ قِراءتِهِ قِراءةً شاملةً تَسْتَهْدِفُ الأيديولوجياتِ والرُّؤى الكائنةَ فيه.

وقَدِ اعتمدتُ في الدِّراسةِ استراتيجياتِ المَنهجِ التَّفكيكيِّ، الذي تبدأُ إجراءاتُهُ بقِراءةِ النُّصوصِ الأدبيَّةِ
قِراءةً أوَّليَّةً؛ لِتحقيقِ قَدْرٍ من الفَهمِ المُسبقِ، قبلَ البَدءِ الفِعليِّ في تَفكيكِ تلكَ النُّصوصِ، ثمَّ يلي
القِراءةَ الأولى قِراءةً مُتأنِّيَّةً، تسعى لِتَلْمَسِ المَدلُولاتِ التي تَقَعُ في نَفوسنا، ونُسجِّلُها كَأَثَرٍ من آثارِ
القِراءةِ، التي سَتَشكُلُ - بعدَ ذلكَ - عناصرَ البِناءِ ولِبِناتِهِ، وتقودنا نِهايةً إلى تأويلِ مُختلِطٍ بِالشَّرْحِ
والتَّحليلِ، كإِجراءينِ يُشكِّلانِ مَعَهُ استراتيجيَّةً من استراتيجياتِ التَّفكيكِ.

وتَجَدُّرُ الإِشارةِ إلى أنَّ المَنهجَ التَّفكيكيِّ - كِفِعلِ تَطبيقيٍّ - لَمَّا يَأخُذُ حيزاً واسعاً بعُدِّ في عالَمِنا
العَرَبِيِّ، أمَّا على المُستوى النَّظريِّ، فقد وصلنا بِفِعلِ التَّرجمةِ عن الغربِ وفيهِ خَلَطٌ كَثيرٌ، وقد بَدَتْ
إِجراءاتُهُ النَّظريَّةُ يَشوبُها الغُموضُ واللَّبْسُ، في كتاباتِ مَنْ اهتمَّوا بِنَقْلِ هذا المَنهجِ ضِمْنَ سِياقهِ
النَّظريِّ، لِذلكَ تَحتمُّ عَلَيْنَا استِخْلاصُها من مُجْمَلِ ما كَتَبَهُ هؤلاءُ، لِتثبيتِ استراتيجياتِهِ، وإزالةِ ما
يَعْتَرِيهِ من لَبْسٍ وغموضٍ.

وقد جاءت الدراسة في تمهيدٍ، جعلته للحديث عن المنهج التفكيكي في إطاره النظري والتطبيقي، وفصلين رئيسيين: فصل اشتمل على ما أنتجته القراءة التفكيكية من رؤى إنسانية، كونت مباحثه المختلفة في الحب، والمرأة، وما هو مرتبط بهما من شؤون، وقضايا إنسانية لا حصر لها، وفصل اشتمل على موضوعات سياسية، هي خلاصات ما تمخضت عنه القراءة الشاملة للشق السياسي من شعر نزار، على نحو: الوطن، والقضية الفلسطينية، والواقع العربي، والهجوم على العرب وتفريعهم ... واشتملت الخاتمة على أهم النتائج والتوصيات التي خلصت إليها الدراسة.

وأشير هنا، إلى أن الدراسة قد دُعمت بما وافقها من آراء نقدية، جاءت في كتابات من اهتموا بدراسة شعر نزار، وبما أضيف في نهاية كل فصل من التفاتات مهمة، في سياق الحديث عن الجدال النقدي في الحب والمرأة والسياسة في شعره.

اعتمدت في الدراسة مصادر عديدة، أذكر منها: "الأعمال السياسية الكاملة" و"الأعمال الشعرية الكاملة" و"الأعمال النثرية الكاملة" لنزار قباني، وقد شكلت الدواوين التي ضممتها الأعمال الكاملة مصادر رئيسية، أسهمت في بناء موضوعات الدراسة. وكذلك، اعتمدت مراجع ودراسات متنوعة، أذكر منها: "أسئلة الشعر" لمُنير العكش و"الكون الشعري عند نزار قباني" لمُحيي الدين صُبحي، و"النار والجوهر" لجبرا إبراهيم جبرا، و"نزار قباني شاعر هذا العصر" لِفدوى عباس، و"نزار والمواقف العربية" لعبد العزيز شرف، و"الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية" لمحمد سعد الله ... و"معالم النفس عند نزار قباني ما تزال تتفجر" وهي دراسة لبيانكا ماضيّة، و"نزار قباني بين مطرقة وسندان النقد" وهي أيضاً دراسة لمحمود محمد أسد ... وقد أفادت جميعها في تعزيز الدراسة، ودعم مضمانيها.

أتمت - بعون الله - هذه الدراسة، وقد وفَّقني الله في تجاوز الصعوبات الكبرى، المتمثلة في كثرة دواوين الشاعر، وما يتطلبه ذلك من جهد عال، واستغراق في الوقت. وكذلك واجهت صعوبات كبيرة في جمع ما احتجبت إليه من كتب، ودراسات، فقد قضيت زمناً طويلاً حتى جمعت كثيراً منها، واستغنيت عن كثيرٍ لعدم جدواها.

والله الموفق، وهو نعم المولى ونعم النصير ...

المنهج التفكيكي ... من التنظير إلى التطبيق

تقوم فلسفة التفكيك على ثلاثة محاور، هي: القراءة، والتفكيك، والتأويل. وهذه أفعال يقوم بها المتلقي للنص الأدبي، هو الذي يقرأ، وهو الذي يفكك؛ ليقدّم نصوصاً جديدة مؤتلفة من المعاني الظاهرة، والمعاني العميقة المختبئة ما وراء السطوح. ولا بُدَّ لهذا القارئ - حين يمارس عمله على النصوص - أن يتمّ له "توافر قدر معين من الفهم المسبق للموضوع، وإلا فلن يحدث تواصل على الإطلاق"⁽¹⁾، وإنّ هذا الفهم المسبق يعدّ خطوة أولى في ممارسة عمل التفكيك.

إنّ ثمة من يرى المعنى في مقصد الشاعر في نصّه؛ فيعمد إلى الشرح، وهنالك من يرى المعنى في حنايا النص؛ فيعمد إلى التحليل، وهنالك من يرى المعنى في تلقّي القارئ للنص، وفيما يحدثه في نفسه من ردات واستجابات، تتفاعل مع ما يملكه من مرجعيات معرفية وفكرية، مكونة نصاً جديداً يحمل فهم القارئ وتصوّراته، وهذا هو صنيع التفكيكية.

واستراتيجية التفكيك تقتضي أن يشتمل التأويل نسبياً على الشرح والتحليل، كإجراءين يسبقانه، في حين لا يمكن أن يحتوي الشرح على أي نوع من التحليل أو التأويل.

إنّ اختلاف الوجهات لدى من يقصدون النصوص الأدبية قادم من اختلاف المناهج التي يرتكزون عليها، فقد جعل أصحاب المناهج: التاريخية، والاجتماعية، والنفسية السلطة للمؤلف، بينما جعل أصحاب المناهج: الشكلية، والأسلوبية، والبنوية السلطة للنص، أما أصحاب المناهج: السيميولوجية، والتناسية، والتفكيكية فقد جعلوا السلطة للقارئ⁽²⁾.

لذا فإنّ النصوص التي يعمد إليها أرباب المناهج التاريخية هي نصوص عادية، لا تقول إلا ما يقوله ظاهرها، وهذا يعني أنّ ظاهر النص هو كل النص، أو هو نصّ أحادي الدلالة، ولا يصلح إلا لقراءة واحدة، وقارئه مستهلك للنص، يلجأ إلى مناهج تساعده على معرفة الدلالة، من خلال المؤلف، أو العصر، أو المجتمع الذي يعيش فيه صاحب النصّ.

¹ - عادل مصطفى، فهم الفهم، ص 52.

² - ينظر: خليل موسى، جماليات الشعرية، ص 279.

أما النصوصُ التي يَعْمَدُ إليها أصحابُ المناهجِ الشكليَّةِ وما بعدَ الشكليَّةِ، فهيَ نصوصٌ تُشكِّلُ وقائعَ مُستقلَّةً عن أصحابها ومُجتمعاتها، ولذلك فإنَّ حقيقةَ تلكِ النصوصِ لا تأتيها من خارجها، وإنما هي كائنةٌ فيها، فالأيدولوجيا فيها أيدولوجيا نصيَّةٌ، والحقيقةُ فيها حقيقةٌ نصيَّةٌ⁽¹⁾. وقُوَّةُ النصِّ الذي يَعْمَدُ إليه أصحابُ تلكِ المناهجِ "في إخفاءِ استراتيجياتِهِ ومدلولاتِهِ، وهو لا يُصرِّحُ بكلِّ ما يُريدُ، فقوَّتُهُ في غناه، وغناه في اختلافِهِ بينَ مُستوياتِ الكلامِ، وليسَ في تجانسِها"⁽²⁾.

واستراتيجيةُ التفكيكِ تقودنا إلى نصٍّ مفتوحٍ، يُشكِّلُ نصًّا آخرَ، هو النصُّ المُنتجُ (التأويل) الذي يَكُونُ بفعلِ القراءةِ، واعتماداً على مرجعيَّاتٍ معرفيَّةٍ، يمتلكها القارئُ بعيداً عن العينيَّةِ، أو التكلُّفِ وتحميلِ النصِّ ما لا يُمكنُ احتمالُهُ، وكلُّ قراءةٍ جديدةٍ للنصِّ الأدبيِّ تكشفُ عن معانٍ تأويليَّةٍ جديدةٍ، وهذا مُرتكزٌ أساسيٌّ من مُرتكزاتِ التفكيكِ، وهكذا تتسعُ النصوصُ الأدبيَّةُ لقراءاتٍ غيرِ مُنتهيَّةٍ.

إنَّ القراءةَ التفكيكيَّةَ ليستَ قراءةً عينيَّةً، إنما هي قراءةٌ واعيةٌ، تسعى إلى تجاوزِ السطوحِ، لتصلَ إلى المفاصلِ الخفيَّةِ في النصِّ الأدبيِّ، والتي تُحرِّضُ القارئَ على الفعلِ المضبوطِ بما هو ظاهرٌ، والتكونُ قراءةً قد يطلُّ منها الغائبُ، والمُمتنعُ، وما لم يُفكِّرُ فيه، والهامشيُّ، والمنفيُّ، وما لم يتخلَّقُ جسداً على المُحتَمَلِ والمُمكنِ"⁽³⁾.

إنَّها قراءةٌ تسعى إلى هدمِ "استسلامِ نهائيَّةِ المعنى الثابتِ أمامَ تغايرِ المعنى المُتعدِّدِ اللانهائي"⁽⁴⁾. ومن هنا جاءَ اتسامُ التفكيكيَّةِ بحريَّةِ الرؤيا، وحرِّيَّةِ السعيِّ وراءَ المُغيَّبِ في اللغةِ، والمعاني المُوجَّلةِ بشكْلِ لانهائيٍّ⁽⁵⁾.

وفي قراءتنا شعرَ نزارِ، لم يَكُنْ فعلنا فعلاً جُزئياً، يقومُ على اختيارِ نصوصٍ مُعيَّنة، وإخضاعها للدراسةِ، إنما عمَدنا إلى قراءةِ جميعِ نصوصِهِ الشعريَّةِ، ابتداءً من أوَّلِ قصيدةٍ مُدرَّجةٍ في ديوانِهِ الأوَّلِ، وانتهاءً بأخِرِ قصيدةٍ في ديوانِهِ الأخيرِ. ولقد استغرقتِ القراءةُ التفكيكيَّةُ وقتاً طويلاً، تجاوزَ العامَ، وذلكَ عائداً إلى كثرَةِ الدواوينِ التي خَلَّفها نزارُ قباني، والتي تُقاربُ الثلاثينَ ديواناً.

¹- يُنظر: خليل الموسى، جماليَّاتِ الشعريَّةِ، ص 288-291.

²- خليل الموسى، م.ن.، ص 209.

³- مُنذر عياشي، الكتابةُ الثانيةُ وفتحةُ المتعة، ص 152.

⁴- محمَّدُ سعد الله، الأسسُ الفلسفيَّةُ لنقدِ ما بعدَ البنيويَّةِ، ص 153.

⁵- يُنظر: محمَّدُ عناني، المُصطلحاتُ الأدبيَّةُ الحديثةُ، ص 51؛ عبد الله إبراهيم، التفكيكُ، الأصولُ والمقولاتُ،

ص 51-52.

واستخدمنا في عملنا كل إجراءات التفكير، فقد اسعفتنا القراءات المتكررة لنصوص نزار الشعرية في تكوين فهم مسبق، قبل الشروع الفعلي في تفكيك تلك النصوص، ثم جعلنا نقرأ نصوص الشعر قراءة متأنية، في محاولة جادة لتلمس المدلولات التي تقع في نفوسنا، ونسجلها كأثر من آثار القراءة، والتي شكلت فيما بعد مكونات البناء ولبناته. ولقد جاءت النصوص المنتجة تأويلاً ممزوجاً بالشرح والتحليل، كإجراءين يشكّلان معاً استراتيجيّة من استراتيجيات التفكير.

ولعلّ أعظم ثمار أنتجتها القراءة التفكيكية هي بناء موضوعات عديدة، اللبّات الأساسية فيها عناصر ومكونات من نصوص شعرية لا حصر لها، حتى بدأ كل موضوع قائماً بذاته، تدعّمه نصوص الشاعر، التي فكت مكوناتها وشكلته، أي أنّ الموضوع الواحد تكوّنه سياقات متفرقة، متباعدة مكانياً وزمناً في أغلب الأحيان، ويحتاج الربط فيما بينها إلى قوة لمح، ومقدرة ذهنية عالية على الجمع بين تلك السياقات، وإبصار الروابط المشتركة بينها.

ولنأخذ - مثلاً على ذلك - موضوع الصمت الذي أخذ أبعاداً ومعاني تأويلية، شكلتها سياقات واقعة في نصوص شعرية موزعة في عدد من الدواوين، ثم كوّن الجمع بين تلك المعاني التأويلية ظلالاً أخرى من المعاني السامية، التي تُعبر عن قيم إنسانية عالية، لا يمكن أن يفرضها موقف واحد، بل هي تعبير عن إرهاصات وتجارب عشق كبرى، جاءت في سياقها الحقيقي، وضمن حوادث حصلت في أزمنة متباينة.

وأخيراً، فإنّ دراستنا هذه كانت قراءة للمراتب العليا في شعر نزار، ولذا فقد كان اهتمامنا منصّباً على اقتناص أعلى قيم تشتمل عليها قصائد الشاعر، ذلك أنّ قيمة النصّ الشعري هي الرؤيا القابعة فيه، والتي تغدو - وفق القراءة التفكيكية - من مهام القارئ المتلقي للنص، لكي يُقدّمها كما تفاعلت في نفسه، وبما أحدثته من ردات واستجابات، ولقد تمت قراءة كل ما نشع به نصوص الشعر النزارية من رؤى، لتشكل - بعد ذلك - عناصر البناء التي طفقنا نبني منها موضوعات الدراسة، والتي سنعرضها جليّة في الصفحات القريبة، آمليّن أنّ تكون عوناً لمن يبتغون معرفة المزيد عن حقيقة الشعر النزارية.

الفصلُ الأوَّلُ: الرُّؤىُ الإنسانيَّةُ

المَبْحَثُ الأوَّلُ: في الحُبِّ

المَبْحَثُ الثَّانِي: في المَرَأةِ

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: في سيكولوجيَّةِ المَرَأةِ

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: في الأنوثةِ

المَبْحَثُ الخَامِسُ: في الجِنسِ والمَرَأةِ والوَطَنِ

المَبْحَثُ السَّادِسُ: الجَدَلُ حولَ المَرَأةِ والحُبِّ

المَبْحَثُ الأوَّلُ: فِي الحُبِّ

الصَّمْتُ !!

إنَّ بعضَ حالاتِ العشقِ عندَ نزارٍ تقتضي الصَّمْتَ، فيغدو الصَّمْتُ أشدَّ بلاغةً من الكلامِ، وتبدو الإيحاءاتُ التي يُقدِّمها غايةً في الروعةِ، ولذلك يُصبحُ الصَّمْتُ مُعبِّراً قوياً عن حالةِ عشقٍ عظيمةٍ، لا تتسعُ لها أوعيةُ الكلماتِ، وينقلها الصَّمْتُ نقلاً رائعاً بليغاً، يقولُ:

أرجوكِ أن تحترمي صمتي ..
إنَّ أقوى أسلحتي هو الصَّمْتُ.
هل شعرتِ ببلاغتي عندما أسكتُ؟
هل شعرتِ بروعةِ الأشياءِ التي أقولها؟
عندما لا أقولُ شيئاً .. (1)

ولعلَّ الصَّمْتُ أقوى في الدلالةِ على عمقِ الشعورِ في حالاتِ مُعيَّنةٍ من الوجْدِ، عندئذٍ يُصبحُ الصَّمْتُ مُعبِّراً حقيقياً عن أعاصيرِ الحُبِّ، التي لا تتسعُ اللُّغةُ لها، ويُقدِّمُ الذُّهولُ إشاراتِ الدهشةِ أمامَ عظمةِ العشقِ، يقولُ:

إذا مرَّ يومٌ . ولم أتذكرُ
به أن أقولَ صباحك سُكراً ...
ورحمتُ أخطُ كطفلٍ صغيرٍ
كلاماً غريباً على وجهِ دفتري
فلا تضجري من ذهولي وصمتي
ولا تحسبي أن شيئاً تغيرُ
فحينَ أنا . لا أقولُ: أحبُّ ..
فمعناه أني أحبُّك أكثرَ .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 477/2.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 469/1.

إِنَّ الصَّمْتَ لَيْكَادُ يُسْمَعُ الْأَشْوَاقَ إِلَى الْمَحْبُوبَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَفْعَلُهُ اللَّغَةُ، فَيَصْبِحُ السَّلَاحُ الْأَقْوَى لَدَى الشَّاعِرِ، إِنَّهُ "اللُّغَةُ الصَّافِيَةُ الَّتِي تَكْشِفُ مَا يُكْنُهُ الْإِنْسَانُ ... وَمِنْ ثَمَّ فَهوَ يُمَثِّلُ قُوَّةً تُلْجِمُ ضَوْضَاءَ الْكَلَامِ بَعْمَقِ دَلَالَتِهِ وَإِيحَائِهِ"⁽¹⁾. يَقُولُ:

هل تسمعين أشواقي
عندما أكون صامتاً؟
إِنَّ الصَّمْتَ، يَا سَيِّدَتِي،
هُوَ أَقْوَى أَسْلِحَتِي ...⁽²⁾

ولعلَّ تَكَرَّارَ رَبِطِ الصَّمْتِ بِالسَّلَاحِ يُعَزِّزُ عُنَاصِرَ الْقُوَّةِ لَدَى فِعْلِ الصَّمْتِ، بِقَدْرِ مَا يُعَزِّزُ عُنَاصِرَ الضَّعْفِ لَدَى فِعْلِ الْكَلَامِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْعَاشِقَ يَلْجَأُ إِلَى فِعْلِ الْقُوَّةِ (الصَّمْتِ) الْمُوَازِي لِقُوَّةِ عَشْقِهِ.

وَيَأْخُذُ الصَّمْتُ أُبْعَاداً أُخْرَى، فَقَدْ يَعْنِي الْخُشُوعَ وَالِاسْتِغْرَاقَ فِي تَأْمُلِ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ لِلْمَرْأَةِ، عِنْدئذٍ يَحْشُدُ الصَّمْتُ طَاقَاتٍ تَمْنَحُهُ ظِلَالاً جَمَالِيَّةً، لَا تَقْوَى لُغَةً عَلَى حَمَلِهَا، وَبِهَذَا الْمَعْنَى، يُصْبِحُ الصَّمْتُ قِيَمَةً جَمَالِيَّةً عَالِيَةً تُسَاوِي الْقِيَمَةَ الْجَمَالِيَّةَ لِلْمَرْأَةِ، لِذَا فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي حَضْرَةِ الصَّمْتِ يُعَدُّ خَرْقاً لَهُ، وَقِتلاً لَجَمِيعِ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ الَّتِي يُضْفِيهَا، يَقُولُ:

فإِذَا وَقَفْتُ أَمَامَ حُسْنِكَ صَامِتاً
فَالصَّمْتُ فِي حَرَمِ الْجَمَالِ .. جَمَالُ
كَلِمَاتِنَا فِي الْحُبِّ .. تَقْتُلُ حُبَّنَا
إِنَّ الْحُرُوفَ تَمُوتُ حِينَ تُقَالُ⁽³⁾

لِذَلِكَ فَإِنَّ الْحِفَاظَ عَلَى الْقِيَمَةِ الْجَمَالِيَّةِ يَحْتَمُّ عَلَى الْعَاشِقِ بَثَّ إِحْسَاسِهِ الْعَالِيِ عِبْرَ سُلُوكِ آخَرَ، هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنِ تَفْسِيرِ شُعُورِهِ بِالْكَلامِ، لِكِي يَبْقَى حُبُّهُ حَاضِراً قَوِيّاً فِي حَالَةِ حُضُورِ الذَّاكِرَةِ وَهُرُوبِهَا، وَفِي حَالَةِ حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، يَقُولُ:

عينك .. بحالة تعنيم
والجو مطير ..
وأنا لا أطلب تفسيراً
ما قتل الحب سوى التفسير

¹- جِبَارُ عَوْدَةَ بَدَن، دَلَالَاتِ الصَّمْتِ فِي شِعْرِ زَهْرٍ دَكْسَن: مَجَلَّةُ أبحاثِ البَصْرَةِ، ع 1، ص 17.

²- نَزَارِ قَبَّانِي، الأَعْمَالُ الشُّعْرِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 233/5.

³- نَزَارِ قَبَّانِي، م.ن.، 491/1-492.

إني أهواك .. وذاكرتي
في أفصى حالات التخدير⁽¹⁾

فالمقام هنا مقام غرق وخشوع أمام حالة من حالات العشق، تفرضُ على العاشق البقاء على حالة الوجد التي يعيشها، ووصولاً إلى أعلى درجات التخدير، دون جنوحه إلى تفسير إحساسه، لنلّا يُصبح التفسير خرقاً للمقام، وقتلاً للحالة الشعورية التي يعيشها.

وعندما يكون الإحساسُ عالياً، ولا تقدرُ لغةً على ترجمته، ينتابُ العاشق شعورٌ بالخوف من البوح بالحب، فيؤثرُ الإبقاء على إحساسه العالي بالصمت، خشيةً من فقدان شيءٍ من تجليات العشق، يقول:

أخاف أن أقولَ للتي أُحبُّها
(أحبُّها)

فالخمرُ في جرارِها
تخسرُ شيئاً
عندما نصبُّها .. (2)

وقد يُضحي الصمتُ لغةً تعبرُ عن حالة المعاناة التي يعيشها العاشق، في حين يُصبحُ الكلامُ مؤامرةً عليه، لعدم قدرته على نقلِ معاناته، وبذلك تفقدُ القصيدة قيمتها، وتغدو كالحجر. ولعلَّ تلك المعاناة تقوده إلى تأملات عميقة في الكون، وصولاً إلى التماهي مع موجوداته، عندئذ يكون الصمتُ السلوك الأمثل لحدوث التوحد الصوفي مع المحبوبة ومع العناصر الكونية، ويقوده إلى تأملات بليغة لا حصرَ لها في الحياة، وفي شخص المحبوبة، الذي يشكلُ لدى الشاعرِ أحدَ العناصر العُلوية في النظام الكوني، وهذا ما يجعله يُعرضُ عن الكلام، لأنَّ القول بالكلام حتماً سينتهي، أمَّا القول بالصمت فإنه مستمرٌّ باستمرار الصمت، ولسوف تنتجُ عن هذا الصمت تأملات غير مُنتهية، يقول:

دعيني أقولك بالصمت ..

حين تضيقُ العبارة عما أعاني ..
وحين يصيرُ الكلامُ مؤامرةً أتورطُ فيها.
وتغدو القصيدة أنيةً من حجر .. (3)

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 45/2.

²- نزار قباني، م.ن.، 553/1.

³- نزار قباني، م.ن.، 210/2.

وقد يكون الصَّمْتُ استجابةً لآلاف النداءات والأحاديث، التي تَبْثُّهَا يَدَا المَحْبُوبَةِ على طاولَةِ العَشْقِ، عندئذٍ يكون الإصغاءُ لإشاراتِ اليَدَيْنِ ورَعَشَاتِ الأصابعِ بِلَاغَةً، ومُراعَاةً لِمُقْتَضَى الحالِ، يقولُ:

قليلاً من الصَّمْتِ ..

يا جاهِلَةً ..

فأجملُ من كُلِّ هذا الحديثِ

حديثُ يَدَيْكَ

على الطَّوَلَةِ .. (1)

ويَنْتَهِي كُلُّ كَلَامٍ، ويصْبِحُ الصَّمْتُ أَمْرًا حَتْمِيًّا، عندما تُرْسِلُ عينا المَحْبُوبَةِ أحاديثَهُما، التي تتطَلَّقُ من فضاءاتِهِما الكَوْنِيَّةِ (البَعِيدَةِ)، يقولُ:

عندما تَبْدَأُ في عَيْنِكَ آلافُ المرايا بالكلامِ

يَنْتَهِي كُلُّ كَلَامٍ ..

وأراني صامِتًا في حَضْرَةِ العَشْقِ،

ومَنْ في حَضْرَةِ العَشْقِ يُجاوِبُ؟ (2)

الحُبُّ المُتَحَرِّكُ !

يرفضُ نزارُ الثَّبَاتَ في الحُبِّ، فهوَ مع الحُبِّ المُتَحَرِّكِ، لذلكَ يدعو محبوبَتَهُ إلى حُبِّهِ البَحْرِيِّ، الذي لا يكونُ على وتيرةٍ واحدةٍ، ولا يَسْتَمِدُّ قوانينَهُ من الأعرافِ السائِدةِ في البرِّ، إنَّما يَسْتَمِدُّها من البحرِ حيثُ اللاسكُونُ، والتَّجَدُّدُ المُسْتَمِرُّ، والمُصادَفَاتُ المُتَعاقِبَةُ، يقولُ:

لماذا تَبْحَثِينَ عن الثَّبَاتِ؟

حينَ يكونُ بوسعنا أن نحتفظَ بعلاقاتنا البحريةِ

تلكَ التي تتراوحُ بين المدِّ .. والجزرِ

بين التَّراجُعِ والاقْتِحامِ

بين الحنانِ الشاملِ، والدِّمارِ الشاملِ .. (3)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 554/1.

²- نزار قبَّاني، م.ن، 185/2.

³- نزار قبَّاني، م.ن، 625/2.

عندئذٍ سوفَ ينجمُ عن كلِّ فعلٍ في الحُبِّ فعلٌ آخرٌ، مُناقِضٌ لَهُ في المعنى، مُتَّفِقٌ مَعَهُ في الحركةِ، فَبِقَدْرِ ما يَكُونُ هُنَاكَ تَراجُعٌ؛ يَكُونُ هُنَاكَ اِفتِحاحٌ، وفعلُ التَّراجُعِ فعلٌ حركةٍ، وكذَلِكَ اِفتِحاحٌ، وما بَينَ الأمرينِ حركاتٌ كَثيرةٌ، وفَعلا الحنانِ والدمارِ يُكرِّسُ كُلُّ مَنهُما الآخرَ، إذ سرعانَ ما تَخْتَفِي الضَّديَّةُ، وَيُصِيحُ الحنانُ دَماراً أو الدَّمَارُ حناناً ... مِنْ أَجلِ ذلكِ، يُمكنُ أَنْ نُقرِّرَ أَنَّ شَأْنَ الحُبِّ لا يَكُونُ عَظيماً، إِلا إِذا اجتمَعَتُ فيهِ أَفعالٌ يُكرِّسُ بَعْضُها الآخرَ، رَغْمَ اِختلافِها في الظَّاهِرِ ... وبذلكِ يَغدو الجَزْرُ والتَّراجُعُ والدمارُ ضروراتٍ في الحُبِّ، ولعلَّها تُصَبِّحُ قِيماً إيجابيّةً، وتتحوّلُ إلى معانٍ ساميةٍ، وليسَ كما يُوحي ظاهرها.

وبقدرِ ما تُبدي محبوبتُهُ من تحوُّلاتٍ، ترتفعُ درجةُ أُنوثَتِها، وتقودُهُ إلى انقِلاباتِها البَحْرِيَّةِ المُتعدِّدةِ، عندئذٍ ستَكُونُ خارِقةً، كسَمَكَةٍ تَخْتَرِنُ في داخِلِها كُلِّ مَزايا البَحْرِ، وتَقَلِّباتِهِ، وجُنُونِهِ. ويُعدُّ هذا تطوُّراً في الرُّؤيا لدى نزار قبَّاني، يقولُ:

كُلُّ ما هو مَطْلوبٌ مِنْكَ ..

أَنْ تَتَسَيَّ غِرائِزِكَ البَرِّيَّةَ ..

وتُطِيعِي قِوانينَ البَحْرِ ..

وتَخْتَرِقِينِي .. كَسَمَكَةٍ مَجنونَةٍ ..

تَشطُرُ السَفينَةَ إلى نِصْفينِ ..

والأُفقَ إلى نِصْفينِ ..

وحِياتِي إلى نِصْفينِ ... (1)

وأخيراً، فإنَّ ذاكِرتَهُ لا تُحسِنُ الاحتِفاظَ بالحُبِّ الثَّابِتِ، ولا تَحْتَفِظُ بِامرأةٍ مُجلِّدةٍ، أو سَمَكَةٍ مُجمَدَةٍ، إِنِّما الشَّأنُ لامرأةٍ مُشْتَعَلَةٍ بالأَسنَلَةِ، مُتجدِّدةٍ كالبَحْرِ، يقولُ:

لا أُرِيدُ ..

أَنْ أَحتَفِظَ بِكَ في ذاكِرتِي

كَسَمَكَةٍ مُجلِّدةٍ ...

أُرِيدُكَ أَنْ تَكُونِي

مُشْتَعَلَةً بالأَسنَلَةِ ..

ودائِمَةً التَّحوُّلاتِ، كالبَحْرِ ... (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشَّعْرِيَّةُ الكاملةُ، 629/2-630.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 235/5.

الحُبُّ والمَسَافَات !

يُلْغِي العِشْقُ جَوَانِبَ كَثِيرَةً فِي حَيَاتِنَا، وَيُعَيِّرُ فِينَا مَوَاقِفَ، فَيُلْغِي الجَانِبَ المَادِيَّ، وَيَحْتَلُّ المَسَاحَةَ الكُبْرَى مِنْ حَيَاتِنَا، فَتَصْبِحُ الأَمْوَالُ والقُصُورُ أَمْوَرًا لَا قِيَمَةَ لَهَا، يَقُولُ:

حَبِيبَتِي. إِنَّ أَخْبَرَكَ أَنَّي
لَا أَمْلِكُ العَبِيدَ والقُصُورَا
وَلَيْسَ فِي يَدِي عَقْدُ مَاسٍ
بِهِ أَحْيَطُ جِيدَ الصَّغِيرَا
قَوْلِي لَهُمْ بِكُلِّ عُنْفُوانٍ
يَا حَبَّي الأَوَّلَ والأَخِيرَا
قَوْلِي لَهُمْ : كَفَانِي
بَأَنَّهُ يُحِبُّنِي كَثِيرَا . . . (1)

إِنَّ النَّصَّ السَّابِقَ يَضَعُنَا أَمَامَ مُعْضَلَةٍ كُبْرَى فِي الحُبِّ، هِيَ مَسْأَلَةُ التَّفَاوُتِ الطَّبَقِيِّ، وَيَضَعُنَا أَمَامَ تَسْأُولٍ كَبِيرٍ: هَلِ الأَمْوَالُ والقُصُورُ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الحُبِّ؟

ولعلَّ أعظمَ أثرٍ نَلَمَسَهُ بالقِراءَةِ العَمِيقَةِ هُوَ رَفْعُ القِيَمِ المَعْنَوِيَّةِ، وَالْحَطُّ مِنْ الجَوَانِبِ المَادِيَّةِ، عِنْدئذٍ تَتَقَلَّبُ المَوَازِينُ، وَيَعْدُو الفَقِيرُ صَاحِبَ مَلِكٍ عَظِيمٍ، وَيُمَسِّي الغَنِيُّ الفَقِيرَ، إِذْ لَا يُسَعِفُهُ مَالُهُ فِي بِلُوغِ حُبِّ حَقِيقِي . . . الفَقِيرُ يَمْلِكُ كُلَّ القِيَمِ المَعْنَوِيَّةِ، الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ تَحْقِيقِ الانسِجَامِ مَعَ شَرِيكَتِهِ، وَالغَنِيُّ تُمَحِّقُ أَمْوَالَهُ وَقُصُورَهُ، وَتَصْبِحُ بِلَا قِيَمَةٍ.

لِذَلِكَ، قَدْ يَتَضَادُّ المَعْنِيانِ: المَعْنَى الحَاضِرُ، وَالمَعْنَى الغَائِبُ فِي العِبَارَةِ الوَاحِدَةِ؛ فَتَصْبِحُ عِبَارَةٌ: "لَا أَمْلِكُ" تَعْنِي: "أَمْلِكُ"، فَهُوَ لَا يَمْلِكُ العَبِيدَ والقُصُورَ، إِنَّمَا يَمْلِكُ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي يَدِهِ عَقْدُ مَاسٍ، وَإِنَّمَا فِي يَدِهِ دِفءٌ تُحَسُّ بِهِ مَحْبُوبَتُهُ، وَتَصْغُرُ لَدَيْهَا كُلُّ الأَسَاوِرِ وَالعُقُودِ.

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 377-376/1.

ويُلغِي الحُبُّ فارقَ العُمُرِ بينَ المُتَحَابِّينَ، فتمَّحِي السَّنَوَاتُ، وَلَا يُحْسَبُ إِلَّا عُمُرُ الحُبِّ، يَقُولُ:

بيني وبينك ..

اثنتان وعشرون سنةً من العُمُرِ ..

وبينَ فمي وفمك ..

حين يلتصقان ..

تنسحق السنوات ..

وينكسر زجاج العُمُرِ .. (1)

ولعلَّ المسافاتِ الزَّمَنِيَّةَ المُنْسَحِقَةَ فِي النَّصِّ تقودُنَا إلى فلسفةِ الإحساسِ بِالزَّمَنِ، لَنَقَرَّرَ - بعدَ ذلكَ -
أنَّ الزَّمَانَ المقصودَ هو زمنٌ قلبيٌّ عاطفيٌّ، وليسَ كُلُّ زمنٍ يعيشُهُ الإنسانُ يدخلُ في حسابِ هذا
الزَّمَنِ.

وعندَ الوصولِ إلى أعلى مراحلِ العشقِ، فَإِنَّهُ يزولُ الفرقُ بينَ البقاءِ والانتحارِ، لأنَّ العشقَ إنْ لم
يكنْ انتحاراً، لا يحملُ معنى البقاءِ، ولسوفَ يُنتِجُ هذا الانتحارُ (العشقُ) معانيَ عظيمةً تُؤكِّدُ أَنَّهُ
عشقٌ يَفوقُ التَّوَقُّعَ، يَقُولُ:

إذا ما النبيذُ الفرنسيُّ،

ألغى الفروقَ القديمةَ بينَ بقائي وبينَ انتحاري

فأرجوكِ، باسمِ جميعِ المجاذيبِ، أنْ تفهميني

وأرجوكِ، حينَ يقولُ النبيذُ كلاماً عن الحُبِّ ..

فوقَ التَّوَقُّعِ .. أنْ تعذريني.

أنا الآنَ في لحظاتِ الجنونِ البهِّيِّ

وسوفَ تُضيعينَ فرصةَ عُمُرِكَ

إنْ أنتِ لم تستغلِّي جُنونِي .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 452/2.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 142/4.

إِنَّ الْحُبَّ يَكْبُرُ وَيَتَضَخَّمُ حَتَّى يُصْبِحَ عَصِيًّا عَلَى التَّخَيُّلِ، عَصِيًّا عَلَى التَّفْسِيرِ، وَهَكَذَا تَلْتَبِسُ الْأُمُورُ فِي نَفْسِ الْعَاشِقِ حَتَّى يَغْدُو غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى التَّمْيِيزِ، فَلَا يَدْرِي أَهْوَى مُقْبِلٌ عَلَى حَيَاةٍ أَمْ هُوَ مُقْبِلٌ عَلَى مَوْتٍ؟! وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْحُبُّ قَدْرًا رَبَّانِيًّا لَا يُرَدُّ وَلَا يُفْهَرُ؟! يَقُولُ:

جزيرة حُبِّك .. لا يطالها التَّخَيُّلُ

حلمٌ من الأحلام ..

لا يُحَكِّي .. ولا يُفَسِّرُ ..

حُبِّك ما يكونُ يا حبيبتِي؟

أزهرَةٌ؟ أم خنجرٌ؟

أم شمعةٌ تُضيئُ ..

أم عاصفةٌ تُدمرُ؟

أم أنه مشيئةُ الله التي لا تُفْهَرُ (1)

وقد يختلفُ العاشقان، وقد يبلُغُ العداؤُ بينهما مَبْلَغًا عَالِيًّا، وقد يَحْصُلُ الجفاءُ، وتتقطعُ الرسائلُ، ومع ذلكَ فَإِنَّ الْحُبَّ هُوَ الْمُنتَصِرُ أَوْلًا وَأَخِيرًا، لِذَلِكَ يَرَى نَزَارٌ أَنَّ صَدَقَ الْحُبُّ وَقُوَّتُهُ يَأْتِيَانِ مِنْ كَوْنِهِ تَجَاوَزًا عَنِ الْاِخْتِلَافَاتِ وَالْحِمَاقَاتِ، إِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ الْخَطَايَا، يَقُولُ:

مهما غلَّونا في عداوتنا

فالحبُّ أكبرُ من خطايانا .. (2)

ولعلَّ الشَّاعِرَ هُنَا يُؤَسِّسُ لِإِجَادِ حَلٍّ لِمُعْضِلَةِ الْإِنْسَانِ أَيْنَمَا وُجِدَ، حَلٌّ يُنْهِي جَمِيعَ الصَّرَاعَاتِ، وَيُزِيلُ أَسْبَابَ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، ذَلِكَ أَنَّ الثَّقَافَاتِ السَّائِدَةَ فِي الْعَالَمِ هِيَ ثَقَافَاتُ الْاِخْتِلَافِ الْعِرْقِيِّ وَالِدِينِيِّ ... وَثَقَافَاتُ تَكَرُّسِ الْعَدَاوَةِ، وَالْكَرَاهِيَّةِ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْآخِرِ ... إِنَّهُ حَلٌّ أَسَاسُهُ الْمَحَبَّةُ وَالتَّسَامُحُ، فَمَتَى مَا أَصْبَحَتِ الْمَحَبَّةُ ثَقَافَةً وَمَنْهَجًا لَدَى الْبَشَرِ عَامَّةً، زَالَتْ كُلُّ أَسْبَابِ النِّزَاعَاتِ، لِأَنَّهَا - عِنْدَنِي - سَتَكُونُ الثَّقَافَةَ الْأَكْبَرَ فِي الْعَالَمِ، وَمَا اِخْتِلَافُ الْعَاشِقَيْنِ إِلَّا صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ لِاِخْتِلَافِ الْبَشَرِ جَمِيعًا.

¹- نزار قبَّاني، الأعمال الشعريَّة الكاملة، 476/1.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 487/1.

طَبِيعَةُ الرَّجُلِ ... وَطَبِيعَةُ الْمَرْأَةِ !

لقد تكوّنت لدى نزار رؤى واضحة حول تفاصيل دقيقة في العشق، فقد رأى أن الرجل يندفع نحو المرأة ويعشقها بسرعة، و يغدو التراجع عنها أمراً مستحيلاً، ويُعد ذلك كشفاً عن طبيعة الرجل التي تُميّزُه عن المرأة، كما ويمكن أن يُعدّ كشفاً آخرَ عن حقيقة الزمن في الحب، إذ تصنع الدقيقة فيه حدثاً يُشكّل حدثاً آخرَ، مُستمرّ التفاعل على امتداد العمر، يقول:

يحتاج الرجل إلى دقيقة واحدة

ليعشق امرأة ...

ويحتاج إلى عصور لنسيانها ... (1)

ومما يؤكد استحالة التراجع في الحب، تلك القرارات التي يُطلقها العاشق بالانسحاب واللاعودة، ثمّ يسميها بالقرارات الكبرى؛ وهذا ما يؤكد هولها في نفسه وصعوبة تحقيقها، وهي ترجمة للطبيعة الإنسانية التي تميل إلى التمرد والرفض، ثمّ سرعان ما تضعف وتستجيب، يقول:

وعدتُك أن لا أُحبك ..

ثمّ أمام القرار الكبير، جئنتُ

وعدتُك أن لا أعود ...

وعدتُ ... (2)

فالاستقالة في الحب ليست من الأمور القابلة للتحقيق، وقتل المحبوبة ليس ممكناً، ومن ظنّ أنه قتل محبوبته، فإنه واهمّ وسيُفاجأ بأنه هو المقتول، يقول:

وعدتُ ...

بذبحك خمسين مرة ..

وحين رأيت الدماء تُغطي ثيابي

تأكدتُ أنني الذي قد ذُبحْتُ .. (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، 340/4.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 295/4.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 301/4.

ولعلَّ ما قرَّره نزارٌ ينفي ما يشيعُ خطأً عندَ مُعظمِ النَّاسِ، حولَ طبيعَةِ كُلِّ مِنَ المِراةِ والرَّجُلِ، يقول: "من أكبرِ الأخطاءِ الشائعةِ القولُ إنَّ المِراةَ أسهلُّ سقوطاً في الحُبِّ مِنَ الرَّجُلِ، وإنَّها أقلُّ مُقاومةً أمامَ الانفعالاتِ العاطفيَّةِ. وهذا غيرُ صحيحٍ أبداً، فالمرأةُ تبقى مُحفِظةً بتوازنها، ورباطةُ جأشها حتَّى في أعنفِ ساعاتِ الهوى. أمَّا الرَّجُلُ فهو يدخلُ في مرحلةِ الهذيانِ مُنذُ اللحظةِ الأولى.. وينكسرُ عشرينَ ألفَ قِطعةٍ"⁽¹⁾. لذلكِ يستطيعُ الرَّجُلُ أنْ يُفلحَ عن أشياءَ كثيرةٍ، لكنَّ إقلاعهُ عن حُبِّ امِراةٍ يبدو أمراً صعباً ومُستحيلاً، يقولُ:

كنتُ أدخنُ مئةَ سِجاريةٍ في اليومِ
وتوقَّفتُ عن الانتحارِ ببطولةٍ

والآن ..

أحاولُ التوقُّفَ عن تدخينِ امِراةٍ واحدةٍ

فلا أستطيعُ ...⁽²⁾

أخيراً، يرى نزارٌ أنَّ جميعَ وسائلِ القوَّةِ التي يمتلكها، تتحطَّمُ أمامَ عيني حبيبتهِ ... فهِيَ وحدها التي تمتلكُ خرائطه، وتعرفُ كُلَّ شيفراته وأسراره، ولعلَّه يرمي إلى إظهارِ سماتِ مُستترَّةٍ، تتفوقُ فيها المِراةُ على الرَّجُلِ، ذلكَ أنَّ الوجهَ الظاهرَ للمِراةِ يوحي بأنَّها الطَّرفُ الأضعفُ، وأنَّ الرَّجُلَ هو الأقوى، لكنَّ الحقيقةَ التي يُقرِّرها غيرُ ذلكَ، فالمرأةُ أكثرُ عمقاً مِنَ الرَّجُلِ، ولا تُبدي من بواطنها أمامَ الرَّجُلِ الذي يُحبُّها إلا القليلَ، بينما يفيضُ الرَّجُلُ في كُلِّ لحظةٍ عشقٍ يقضيها مع المِراةِ بِكُلِّ ما يَعْلجُ في داخله، عندئذٍ تنكشفُ مكامنُ الضَّعفِ والقوَّةِ في نفسه؛ فتملكُ المِراةُ خرائطه وأسراره، لذا يختلفُ ميزانُ القوَى بينَ الرَّجُلِ والمِراةِ، فتتفوقُ قوَى المِراةِ المُستترَّةُ على قوَى الرَّجُلِ الظاهرة، يقولُ:

استعملتُ معكَ ..

كُلَّ الأسلحةِ التَّقليديَّةِ

وكُلَّ الأسلحةِ المتطوِّرةِ

استعملتُ حتَّى أظافري

لكسرِ جدارِ كبرياتكُ

وبعدما خسرتُ خيولي ..

وجنودي ..

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ النَّثريَّةُ الكاملة، 338/7-339.

²- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشَّعريَّةُ الكاملة، 339/4.

وأوسمتي ..
فَعَدْتُ عَلَى مَدَافِعِي أَبْكَى
لَأَنِّي اكْتَشَفْتُ
أَنَّ جَمِيعَ خِرَائِطِي قَدْ سُرِقَتْ
وَجَمِيعَ بَرَقِيَّاتِي السَّرِيَّةِ قَدْ كُشِفَتْ
وَأَنَّ أَشْجَعَ رَجَالِي
تَرَكُونِي
وَالْتَجَوُّوا إِلَى عَيْنِيكَ السُّودَاوِينِ ... (1)

الحُبُّ عَبْرَ إِشَارَاتِ الْيَدَيْنِ وَلُغَةِ الْجَسَدِ !

إِنَّ مَا تَبَيَّنَتْهُ يَدَا الْحَبِيبَةِ مِنْ إِشَارَاتٍ، تُشَكِّلُ تَفَاصِيلَ يَلْتَقِطُهَا الْعَاشِقُ، فَتُكُونُ مَخزُونِ الْجَمَالِ لَدَيْهِ، وَكُلُّ مَا يَكْتَبُهُ مِنْ شَعْرٍ هُوَ - فِي الْحَقِيقَةِ - مُسْتَمَدٌّ مِنْ يَدَيْهَا، وَحُضُورُهُمَا يَعْنِي حُضُوراً لِلْقَصِيدَةِ، وَتَجَسِيداً لِلْجَمَالِ، يَقُولُ:

يَدَاكَ مُتَفَقَّتَانِ كَثِيرًا ..
وَأُسْتَاذَتَانِ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ
وَأَنَا أَقْرَأُ .. وَأَكْتُبُ .. عَلَى ضَوْءِ يَدَيْكَ (2)

وَكَلَامُ يَدَيِ الْحَبِيبَةِ هُوَ الشَّعْرُ الْحَقِيقِيُّ، وَمَا دُونَهُ مِنْ كَلَامِ الشُّعْرَاءِ يَبْقَى مَنْقُوصاً أَمَامَهُ، بَلْ إِنَّ يَدَيْهَا الشَّعْرُ بَعِينَهُ، فَغِيَابُهُمَا يَعْنِي غِيَابَ الشَّعْرِ، وَغِيَابَ كُلِّ مَا يُسَمَّى أَدْباً، يَقُولُ:

يَدَاكَ ..
هُمَا الشَّعْرُ، شِكْلًا وَمَعْنَى
وَلَوْلَا يَدَاكَ ..
لَمَا كَانَ شِعْرٌ
وَلَا كَانَ نَثْرٌ
وَلَا كَانَ شَيْءٌ يُسَمَّى أَدَبًا. (3)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، 280-279/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 385/4.

³ نزار قبَّاني، م.ن.، 152/5.

ثُمَّ يَصِلُ إِلَى ذُرْوَةِ إِحْسَاسِهِ بِقِيَمَةِ يَدَيِ الْمَحْبُوبَةِ، فَيَرَى أَنَّ بُلُوغَهُ حَدًّا عَالِيًّا مِنَ الْإِحْسَاسِ، لَا يَكُونُ إِلَّا عَبْرَ أَصَابِعِ الْحَبِيبَةِ الَّتِي تُوَصِّلُهُ إِلَى اللَّهِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْوَصُولِ وَصُولٌ؟! وَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْمَكَانِ مَكَانٌ آخَرَ؟! إِنَّهُ الْوَصُولُ الْأَفْضَلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بِكُلِّ مَا يَحْمِلُهُ هَذَا الْوَصُولُ مِنْ دَلَالَاتٍ عَظِيمَةٍ، يَقُولُ:

أَصَابِعُ مَوَازِرْتُ
تُوَصِّلُنِي إِلَى حَالَةِ انْعِدَامِ الْوِزْنِ
وَأَصَابِعُكَ ..
تُوَصِّلُنِي إِلَى اللَّهِ.... (1)

ثُمَّ إِنَّ النَّصَّ السَّابِقَ يَضَعُنَا أَمَامَ أَمْرَيْنِ تَتَجَلَّى فِيهِمَا مَعَانٍ رُوحَانِيَّةٌ، نَقُودُنَا إِلَى تَأْمُلِ الْكُونِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَصَوْلًا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ، بِيَدِ أَنَّ التَّجَلِّيَّاتِ الرَّوْحَانِيَّةَ لِلْحُبِّ الْمُتَرَجِّمِ عَبْرَ أَصَابِعِ الْحَبِيبَةِ حَقَّقَتْ سُمُوءًا، وَتَجَاوَزَتْ التَّجَلِّيَّاتِ الرَّوْحَانِيَّةَ لِمَوْسِقًا مَوَازِرْتُ. وَلَعَلَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْحَرَكَاتِ التَّعْبِيرِيَّةِ لِأَصَابِعِ مَوَازِرْتُ الْمَوْسِقِيَّةِ، وَأَصَابِعِ الْحَبِيبَةِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ يَضَعُنَا أَمَامَ حَقِيقَةِ الْفِكْرِ وَالْإِحْسَاسِ الْإِنْسَانِيِّ، الَّذِينَ نَقْصَرُ اللَّغَةَ - غَالِبًا - فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُمَا، فَيَتَوَلَّى الْجَسَدُ أَوْ جِزَاءً مِنْ أَعْضَائِهِ تَلَكُمُ الْمَهْمَةَ، وَهَذَا مَا يُعْرَفُ بِلُغَةِ الْجَسَدِ، وَالَّتِي سَنَقْفُ عَنْهَا بَعْدَ تَمَامِ قِرَاءَةِ النُّصُوصِ ذَاتِ الْعِلَاقَةِ.

إِذَا كَانَتْ يَدَا الْمَحْبُوبَةِ تَحْمِلَانِ كُلَّ هَذِهِ الْقِيَمِ وَالْمَعَانِي، فَإِنَّ جِسْمَهَا تَارِيخُ الشَّعْرِ، وَهُوَ الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ لِجَمِيعِ قِصَائِدِ الشَّعْرِ ... إِنَّهُ الْقَصِيدَةُ الَّتِي تَكْتُبُ نَفْسَهَا، فَتَبْدُو كُلُّ نِصُوصِ الشَّعْرِ بِلَا قِيَمَةٍ، وَيَفْقِدُ كَلَامَ الشُّعْرَاءِ فَائِدَتَهُ، فَيَصْبِحُ جِسْدُ الْحَبِيبَةِ الْمُعْبَّرَ الْفَرِيدَ عَنْ نَفْسِهِ، وَيُصْبِحُ ثَقَافَةً عَالِيَةً الْبَلَاغَةِ. وَتَبْرُزُ هَذِهِ الرُّؤْيَا فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، يَقُولُ:

جِسْمُكَ دَفْتَرُ سِرِّي
سَجَّلْتُ عَلَيْهِ
كُلَّ تَارِيخِ الشَّعْرِ
وَكُلَّ تَفَاصِيلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ (2)

¹ نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، 394/4.

² - نزار قبّاني، م.ن.، 401/4.

ويقول أيضاً:

عندما تجلسين على المقعد الأخضر
ويقرر جسمك أن يُقَيِّ قَصيدته ..
أستقبلُ أنا من الكلام ... (1)

ومثل ذلك قوله:

لهذا النبيذ ثقافته ..
فماذا تهم النصوص؟
وجسمك نصٌّ فريدٌ .. فريدٌ ... (2)

وبعد، فإن جميع النصوص في المطلب السابق تُعدُّ تكريساً للغة الجسد، ويمكن أن نُقرّر على أثرها أن الفكر والشعور الإنساني - في أصلهما - عمليّات فيسيولوجيّة، تُخفّق اللغة في نقلهما؛ فيبادرُ الجسدُ إلى التعبير عنهما، وينقلهما على نحو أفضل.

ووسط هذه اللوحات التي رسمها الشاعر، نازعنا في مشهد الحبّ وظيفتان لحركات الجسد الأنثويّ: وظيفة أنثويّة، ووظيفة تعبيرية، ومثلت الوظيفة الأنثويّة دوراً قوياً في الوظيفة التعبيرية، حتى تداخلت معها، وشكلتا معاً لغة جسدٍ تعبيريةً بدرجة عالية.

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، 4/410.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 5/24.

رُؤَى وَأَبْعَادُ أُخْرَى لِلْحُبِّ فِي شِعْرِ نِزَارِ

وَتَتَسِعُ رُؤَى نِزَارٍ فِي الْحُبِّ، فَتَأْخُذُ أَبْعَاداً أُخْرَى، عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

أ - الرِّبْطُ بَيْنَ الْحُبِّ - كحَقِّ مَسْلُوبٍ - وَسَائِرِ الْحُقُوقِ الْآخْرَى: حَقُّ الْإِنْسَانِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ النَّفْسِ، وَحَقُّ الْمَرْأَةِ فِي اخْتِيَارِ شَرِيكِهَا، وَحَقُّ النَّاسِ فِي اخْتِيَارِ حُكَّامِهَا ... وَقَدْ بَدَأَ نِزَارٌ مِنْ أَعْظَمِ حَقِّ مَسْلُوبٍ، وَهُوَ الْحُبُّ، ذَلِكَ لِأَنَّ اسْتِعَادَةَ هَذَا الْحَقِّ يُقَوِّي إِحْسَانَ النَّاسِ بِقِيَمَةِ الْحُرِّيَّةِ، وَيُعَزِّزُ لَدَيْهِمْ قِيَمَةَ الْحُقُوقِ الْآخْرَى. وَيُعَدُّ ذَلِكَ كَشْفًا عَنِ النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمُسَوَّسِ عَلَى الْقَمْعِ، وَالْكَبْتِ، وَسَلْبِ الْحُقُوقِ، يَقُولُ:

إِنِّي أَحْبَبْتُكَ، يَا سَيِّدَتِي
دِفَاعاً عَنِ حَقِّ الْفَرَسِ ..
فِي أَنْ تَصْهَلَ كَمَا تَنْشَاءُ ..
وَحَقِّ الْمَرْأَةِ .. فِي أَنْ تَخْتَارَ فَارِسَهَا
كَمَا تَنْشَاءُ ..
وَحَقِّ الشُّعُوبِ فِي أَنْ تُغَيِّرَ حُكَّامَهَا
مَتَى تَنْشَاءُ (1)

وَلَعَلَّ الرِّبْطَ بَيْنَ فِعْلِ الْحُبِّ وَفِعْلِ التَّعْبِيرِ (الصَّهِيلِ)، وَفِعْلِ الْإِخْتِيَارِ، وَفِعْلِ التَّغْيِيرِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، يَمْنَحُ فِعْلَ الْحُبِّ زَخْمَ تِلْكَ الْأَفْعَالِ وَحَرَارَتَهَا، فَيُصْبِحُ الْحُبُّ مُعَادِلاً لِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ، وَهَذَا - عَلَى الْأَغْلَبِ - دَعْمٌ لِلْقِيَمِ الْحَضَارِيَّةِ، الَّتِي يَرْمِي الشَّاعِرُ إِلَى بِنِّهَا؛ لِتَكُونَ جُزْءاً أَصِيلاً مِنْ تَقَاةِ الْمُجْتَمَعِ.

ب - الرِّبْطُ بَيْنَ الْحُبِّ وَالتَّفُوقِ الْحَضَارِيِّ، ذَلِكَ لِأَنَّ فِعْلَ الْحُبِّ يَعْنِي مُمَارَسَةَ سُلُوكِ إِنْسَانِيٍّ، وَكَذَلِكَ يَعْنِي فَهْمًا صَحِيحًا لِلشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ؛ عِنْدئذُ تَغْدُو الْقَصِيدَةُ أَقْوَى مِنَ الْمَسْدَسِ، وَتَقْوَى عِزَائِمُ التَّلَامِيذِ، فَيَتَفَوَّقُونَ عَلَى مُحْتَلِّي أَرْضِيهِمْ، وَعَلَى غَازَاتِهِمْ السَّامَةِ، وَتَتَفَوَّقُ الْوَرْدَةُ عَلَى وَسَائِلِ الْقَمْعِ وَالْبَطْشِ الْبُولِيَسِيَّةِ، وَيُصْبِحُ إِنتَاجُ الْكُتُبِ أَعْلَى مِنْ إِنتَاجِ الْأَسْلِحَةِ، يَقُولُ:

أُرِيدُكَ، أَنْ تَكُونِي حَبِيبَتِي
حَتَّى تَنْتَصِرَ الْقَصِيدَةُ ...

¹- نِزَارِ قَبَّانِي، الْأَعْمَالُ الشُّعْرِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 204/5.

على المُسدِّسِ الكاتمِ للصَّوتِ ..
وينتصِرَ التَّلاميذُ
على الغازاتِ المُسيِّلةِ للدُّمُوعِ
وتنتصِرَ الوردةُ ..
على هراوةِ رَجُلِ البوليسِ
وتنتصِرَ المكتباتُ ..
على مصانعِ الأسلحةِ ... (1)

ج - الرِّبْطُ بينَ الحُبِّ والتَّوازنِ النَّفسيِّ، فإذا نحونا في الحُبِّ منحىً حضاريًّا، فإنَّنا سنُعِيدُ لأنفسِنا التَّوازنَ، ونتيجةً لذلكِ سوفَ تستعيدُ الأشياءُ قيمَها المفقودةَ، وسوفَ يُعيدُ الحُبُّ ما فقدتهُ الذَّاكرةُ من مُكوِّناتِ نفوسِنا، التي تشكَّلتْ عبْرَ مراحلِ حياتِنا، ابتداءً من الطُّفولةِ المُبكرةِ، يقولُ:

أريدُ أن أُحِبَّكَ ..
حتَّى أستعيدَ الأشياءَ التي تُشبهُني
والأشجارَ التي كانتْ تتبعُني ..
والقِطَطَ الشَّاميَّةَ التي كانتْ تُخرِمِشُني
والكتاباتِ .. التي كانتْ تكتُبُني .. (2)

أمَّا إذا أخذتْنا بهارجُ الحضارةِ، وأفقدتْنا بعضَ إنجازاتِها جانباً من إحساسِنا، فسنفقِدُ الأشياءَ قيمَتَها المعنويَّةَ، وستنتصِرُ الأقمارُ الصِّناعيَّةُ والتُّكنولوجيا على قمرِ الشُّعراءِ، وقصائدِ الشُّعرِ ... وإذا ما فعلَ السِّياسيونَ فعلَهُم، واستثمروا أضواءَ الحضارةِ وبهاجها في توجيهِ أبصارِ النَّاسِ نحوَها، فإنَّ المُبدعَ سيجدُ نفسهُ في جوفِ المأساةِ، في خِصَمِّ هذا المَشهدِ السِّياسيِّ الصَّعبِ، عندئذٍ لَنُ نستغربَ النِّهاياتِ الفاجِعةَ لِعَدَدِ مِنَ المُبدعينِ، على نحوِ لوركا الإسبانيِّ الذي قُتِلَ ظُلماً، ومايا كوفسكي الروسيِّ الذي اضطرَّ إلى الانتحارِ، وبابلو نيرودا التشيليِّ الذي ماتَ قهراً، يقولُ:

كلُّ شيءٍ يا سيِّدتي
دَخَلَ في (الكُوما)
فالأقمارُ الصِّناعيَّةُ

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشُّعريَّةُ الكاملةُ، 206/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 207/5.

انتصرتُ على قَمَرِ الشُّعْرَاءِ
والحاسباتِ الإلكترونيَّةِ
تفوّقتُ على نشيدِ الإنشادِ ..
وقصائدِ لوركا .. ومايا كوفسكي ..
وبابلو نيرودا ... (1)

وقد شكَّلَ نزارٌ مَوْقِفَهُ استناداً إلى ما يحدثُ في الواقعِ المَعيشِ من تناقضاتٍ، جعلتُ مجتمعاتنا العربيَّةَ الرّحبةَ تضيقُ بأهلها، وصارت رسالاتُ الأنبياءِ عصيَّةً على الفهمِ، لأنَّ النَّاسَ لا يتمتَّونها جيِّداً، وكلامُ الشُّعْرَاءِ أصبحَ دونَ فائدةٍ، وانخفضتُ مستوياتُ الفهمِ، حتَّى غَدَتْ أَقْلٌ من مُستوى سطحِ البحرِ، لذا تحتمُ على نزارٍ أن يُعيدَ لنفسه التَّوازنَ، ويُعيدَ الأشياءَ إلى أماكنها الصَّحيحةَ، ليراها في أبعادها الحقيقيَّةِ؛ فيتَّسعُ الأفقُ لديه، وتبدو السماءُ مُرتفعةً، عندئذٍ سوفَ يتمكَّنُ من ممارسةِ أيِّ سلوكٍ حضاريٍّ، دونَ أن يشعرَ بالضيقِ، أو يفقدَ جانباً من إحساسه، يقولُ:

السماءُ يا سيِّدتي، أصبحتُ واطئةً ..
والغيومُ العالية ..
أصبحتُ تتسكَّعُ على الأسفلتِ ..
ووصايا الأنبياءِ ..
وكلامُ الشُّعْرَاءِ ..
صارت دونَ مُستوى سَطْحِ البحرِ
لذلكَ نَصَحَنِي السَّحْرَةَ، والمُنْجَمُونَ،
ومشايخُ الطُّرُقِ الصَّوْفِيَّةِ ..
أن أُحبَّكَ ..
حتَّى ترتفعَ السماءُ قليلاً (2)

وهنا نُشيرُ إلى ما يُفضي إليه الجَمْعُ بينَ السَّحْرَةِ، والمُنْجَمِينَ، ومشايخِ الطُّرُقِ الصَّوْفِيَّةِ في سياقِ واحدٍ، فنُقرِّرُ أنَّ ذلكَ يُخفي بُعداً آخرَ في النَّصِّ، هو انحرافُ هؤلاءِ جميعاً عن العقيدةِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحةِ، وانحرافُهُمُ إنّما يكونُ في الممارساتِ، والأفعالِ المُناقِضةِ لما هو أصيلٌ في أمورِ الدِّينِ والعقيدةِ.

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشُّعريَّةُ الكاملة، 208/5.

² نزار قبَّاني، م.ن.، 210/5.

المَبْحَثُ الثَّانِي: فِي الْمَرْأَةِ

الْمَرْأَةُ الْأَثِيرَةُ لَدَى نِزَارٍ

إِنَّ الْحَبِيبَةَ الْأَثِيرَةَ الَّتِي رَسَمَهَا نِزَارٌ لَنَا، لَمْ نَنْظُرْ بِتَفَاصِيلِ شَكْلِهَا الْخَارِجِيِّ، فَلَقَدْ قَادَتْهُ إِلَى رَسْمِ مِائَاتِ التَّفَاصِيلِ وَالْمَشَاهِدِ، الَّتِي تُجَسِّدُ حُبًّا عَظِيمًا تَمَّحِي فِيهِ صُورَةَ الشَّكْلِ الْخَارِجِيِّ؛ لِتَذَوُّبِ مَعَ صُورِ أَعَاصِيرِ الْحُبِّ، الَّتِي اجْتَاكَتْ جَمِيعَ مَسَاحَاتِهِ، وَنَقَلَتْهُ إِلَى أَرْضِ الدَّهْشَةِ، حَتَّى غَدَّتْ كُلُّ صُورِهِ تُلْتَقِطُ مِنْ هُنَاكَ، يَقُولُ:

تَصَوَّرْتُ حُبِّكَ .. نَهْرًا صَغِيرًا ..

سَيْحِي الْمِرَاعِي .. وَيُرْوِي السُّهُولَ ..

وَلَكِنَّهُ اجْتَاكَ بَرَّ حَيَاتِي ..

فَأَغْرَقَ كُلَّ الْقُرَى ..

وَأَتَلَفَ كُلَّ السُّهُولِ ..

وَجَرَّ سُرِيرِي ..

وَجُدْرَانَ بَيْتِي ..

وَوَخَّلَنِي فَوْقَ أَرْضِ الذُّهُولِ .. (1)

وَهِيَ امْرَأَةٌ لَيْسَ لَدَيْهَا أَنْصَافُ حُلُولٍ فِي الْحُبِّ، إِنَّمَا هِيَ اجْتِيَاخٌ كَامِلٌ أَوْ إِغْرَاقٌ كَامِلٌ، وَهِيَ إِمَّا حَارِقَةٌ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ، وَإِمَّا مُبْرِنَةٌ مُطْفِئَةٌ لِلْحَرَاقِ، فَلَا وَسْطِيَّةَ لَدَيْهَا، يَقُولُ:

أَشْهَدُ أَنْ لَا امْرَأَةَ ..

تَجْتَاخُنِي فِي لِحْظَاتِ الْعَشْقِ، كَالزَّلْزَالِ

تُحْرِقُنِي .. تُغْرِقُنِي ..

تُسْعِلُنِي .. تُطْفِئُنِي ..

تَكْسِرُنِي نَصْفَيْنِ كَالْهَلَالِ .. (2)

¹- نِزَارٌ قَبَّانِي، الْأَعْمَالُ الشُّعْرِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 240/2.

²- نِزَارٌ قَبَّانِي، م.ن.، 746/2.

ويستمرُّ نزارٌ في تعزيزِ رؤيائه في إلغاءِ الحُلُولِ الوَسْطِيَّةِ في الحُبِّ، فَيُعْلِنُ أَنَّ الحُبَّ العَظِيمَ، الذي تُجسِّدُهُ محبوبيتهُ هو إمَّا سِلْمٌ وإمَّا حَرْبٌ، وهذا الاختِلاطُ في الحُبِّ ما بينَ السِّلْمِ و الحَرْبِ، هو ما يُعْطِي الحُبَّ زَخْمًا وحرارةً وقوَّةً، يقولُ:

حُبُّكَ ..

وقتٌ بينَ السِّلْمِ، وبينَ الحَرْبِ

وليسَ هُنالكَ حَرْبٌ

أسوأُ مِنْ حَرْبِ الأَعْصابِ. (1)

وهي امرأةٌ تمنحُه حُبًّا مُمتدًّا، يُدْخِلُه إلى عالمٍ ساحرٍ، يقودُه إلى مَزِيدٍ مِنَ الذُّهولِ، وإذا حاولَ أنْ يجدَ إجابةً عن سؤالٍ، فإنَّ السُّؤالَ يقودُه إلى أسئلةٍ أُخرى، وإذا فَتَحَ بابًا، أُغْلِقَ بابٌ ... ومهما حاولَ، فإنَّ مساحةَ ذُهوْلِهِ بحبيبتِهِ أكبرُ من مساحةِ الشَّعرِ، ولذا فإنَّ الأسئلةَ لن تتوقَّفَ، ولن يُسْعِفَهُ الشَّعْرُ في تقديمِ جوابٍ، يقولُ:

حُبُّكَ .. سِرْدَابٌ سِحْرِيٌّ

فيه ملايينُ الأبوابِ.

فإذا ما أفتَحُ بابًا ..

يُغْلِقُ بابٌ ..

حُبُّكَ .. يطرحُ ألفَ سؤالٍ

ليسَ لها في الشَّعرِ .. جوابٌ. (2)

والى جانبِ هذهِ الصُّورِ التي رسمها نزارٌ لِأثيرتِهِ، يُمكننا أنْ نُكوِّنَ صُورًا وتفاصيلَ أُخرى، لم تجتمعَ في نصٍّ واحدٍ مِنْ هذهِ النُّصوصِ، إنَّما هي ناجمةٌ عن الجَمْعِ بينَ عناصرٍ حاضرةٍ، وأخرى غائبةٍ في تلكمِ النُّصوصِ، ثمَّ سرعانَ ما نجدُ أنفسنا أمامَ امرأةٍ أُسطوريةٍ، إنَّها عشتارُ التي ترمزُ إلى الخصبِ والنماءِ تارةً، وترمزُ إلى الهلاكِ والدمارِ تارةً أُخرى، فهي السِّلْمُ، والحَرْبُ، والسَّحْرُ، والغموضُ، وهي السِّمَّةُ الأُسْطوريةُ التي لا تقدرُ لُغَةً على ترجمتها، إنَّما هي سِمةٌ مُوزَّعةٌ على اللُّغاتِ كُلِّها.

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشَّعْرِيَّةُ الكاملة، 139/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 140/5.

إنَّ المرأةَ التي قدَّمها نزارٌ لنا، هي الحبيبةُ الأثيرةُ لديه، والتي يُصرُّ عليها، ويُناشِدُها أنْ تظلَّ دائماً مُشْتَعِلَةً بالأسئلةِ، ولعلَّ أعظمَ ما فيها أنَّها أدخَلتُهُ في عالمِ الدَّهشةِ المُستمرَّةِ، فلم يجدْ لأسئلتهِ الكثيرةِ جواباً، إنَّها امرأةٌ مُثيرةٌ، شكَّلتْ تفاصيلها اللغاتِ؛ فباتتْ تلمسُ بالذهنِ ولا تُقالُ، ذلكَ أنَّها قيِّمةٌ عاليةٌ، تصوُّرٌ، تحليقٌ، تأملٌ... وليستْ مُجرَّدَ امرأةٍ عاديَّةٍ، تتحدَّدُ قيمتها عندَ حدودِ شكلها الخارجيِّ وحسب، يقولُ:

يا امرأةً ..

أترُكُ تحتَ شَعْرِها أسئلتي ..

ولم تُجِبْ يوماً على سؤالٍ ..

يا امرأةً ..

هي اللغاتُ كُلُّها ..

لكنَّها ..

تلمسُ بالذهنِ .. ولا تُقالُ .. (1)

وأخيراً، فإنَّ المرأةَ التي تحدَّثَ نزارٌ عنها في كتابه (قصَّتي مع الشعر) هي خلاصةُ تجاربهِ الشعريَّةِ، وهي امتدادٌ للحبيبةِ الأثيرةِ التي رسمتها قصائدهُ رسماً عميقاً، يقولُ: "من خلال تجاربي تعلَّمتُ أنَّ المرأةَ - الشعرَ هي التي تتركُ شراً وارتجاجاً في قشرةِ دماغي، هي التي تُحدثُ خلخلةً في إيقاعِ أيَّامي وفي نظامِ الأشياءِ من حولي، هي التي تُلغي حركةَ الزَّمنِ، وتربطني بزمنها"⁽²⁾.

المرأةُ القضيَّةُ

لم تبقَ المرأةُ عندَ نزارٍ همًّا ذاتيًّا مُتمنِّلاً في محبوبةٍ أحبَّتهُ وأحبَّها، غابتَ عنه، وغابَ عنها ... إنما أخذتْ أبعاداً أخرى، حتَّى غدتْ قضيَّتهُ المحوريَّةُ، التي أفنى عُمره في الحربِ من أجلها، يقولُ: "المرأةُ كانتْ ذاتَ يومٍ وردةً في عروةِ ثوبي، خاتماً في إصبعي، همًّا جميلاً ينامُ على وسادتي، ثمَّ تحوَّلتْ إلى سيفٍ يذبُّني... المرأةُ هي الآنَ عندي أرضٌ ثوريَّةٌ، ووسيلةٌ من وسائلِ التحريرِ"⁽³⁾.

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 747/2.

²- نزار قبَّاني، الأعمالُ النثريةُ الكاملة، 337-336/7.

³- منير العكش، أسئلةُ الشعر، ص 180.

وقد اعتمدَ في كفاحه المُمتدَّ استراتيجياتٍ كثيرةً، كانتَ أولى هذه الاستراتيجيات، أنه جعلَ ما تتمتعُ به المرأةُ من سماتٍ أنثويَّةٍ مزايا تُضافُ إلى مزايا أُخرى، عمِلَ على إبرازها، ليرسُمَ للمرأةَ صورةً صحيحةً، وليضعها في مكانها الرقيق، فهي الخصوبةُ، والوداعةُ، والإلهامُ، وتلكَ سماتٌ تُعشقُ من أجلها، وتعلي من قدرها، يقولُ:

إني أُحبُّك .. جدولاً .. وحمامةً
ونبوءةً تأتي من الزمن البعيد .. (1)

وهي - في الوقت نفسه - الكيانُ القادرُ على الاحتجاج، والرفض، وكسرِ القيودِ، يقولُ:

وأنا أُحبُّك في احتجاج الغاضبين،
وفرحة الأحرار في كسر الحديد (2)

وهو نفسه يقولُ: "حاولتُ بقصائدي - خلالَ خمسينَ عاماً - أن أكسرَ أبوابَ المُعتقلِ النسائيِّ، إنني لا أتصورُ أنَّ طبيعةَ المرأةِ الأساسيّةِ الجُبْنُ، والاستكانةُ، وتقبيلُ اليدِ التي تُطعمُها، ولكنَّ الرجلَ هو الذي حاصرَ المرأةَ بظروفٍ ماديَّةٍ، ونفسيَّةٍ، واقتصاديَّةٍ، وقانونيَّةٍ، جعلتها ترضى بواقعها" (3).

وقد دعا نزارُ المرأةَ لتُشاركه الهدمَ والبناءَ، وكسرَ القيودِ والمُعوّقاتِ. وقد رأى أنَّ الانطلاقةَ تبدأ من المرأة، وأنها تملكُ القدرةَ على صنعِ الثورَةِ، وصياغةِ فكرِ التحريرِ، يقولُ:

اقتربي ..
اقتربي مني ..
ولنكسرِ آلافَ الأشياءِ ..
فلا تعميرَ .. بلا تكسيرِ
من جسمك تنطلقُ الغزواتُ ..
ومنهُ .. سيبتدئُ التحريرُ .. (4)

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، 16/2.

²- المكان نفسه.

³- مفيد فوزي، أنا ونزار، ص 61.

⁴- نزار قبّاني، م.س.، 47/2.

وَتَسْتَمِدُّ الْمَوَاقِفُ النَّزَارِيَّةُ قُوَّتَهَا مِنْ قُوَّةِ الرَّؤْيِ الْكَاشِفَةِ لِلْحَقَائِقِ، الْقَادِرَةِ عَلَى إِحْدَاثِ النَّقْلَاتِ النَّوْعِيَّةِ فِي الْوَاقِعِ، وَهِيَ - بِلَا شَكٍّ - نَقْلَاتٌ حَضَارِيَّةٌ، تَظْهَرُ بِدَايَةِ فِي لُغَةِ التَّخَاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ فِي إِعَادَةِ تَشْكِيلِ الْأُمَّةِ وَقَلْبِهَا، يَقُولُ:

تَتَحَضَّرُ - حِينَ أُحِبُّكَ - آلَافُ الْكَلِمَاتِ

تَتَشَكَّلُ لُغَةٌ أُخْرَى ..

مُدُنٌ أُخْرَى ..

أُمَّمٌ أُخْرَى ..

تُسْرِعُ أَنْفَاسُ السَّاعَاتِ (1)

وَتَظْهَرُ رَدَاتُ الْفِعْلِ - الْمُسْتَجِيبَةُ لِمَوَاقِفِ نَزَارٍ - فِي رَفْضِ قِطَاعَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ الْأَعْرَافِ الْمُعْرِقَةِ لِلتَّنَطُّورِ، وَرَفْضِ مُؤَسَّسَاتِ الْحُكْمِ الْقَبَلِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ، الَّتِي اسْتَمَدَّتْ قَوَانِينَهَا مِنْ مُؤَسَّسَةِ الصَّحْرَاءِ الْمُكْرَسَةِ لِلْقَهْرِ، الْمُجَفِّفَةِ لِلْعَوَاطِفِ، الَّتِي مَلَأَتْ الْأَفْوَاهَ مِلْحًا، يَقُولُ:

تَتَظَاهَرُ - حِينَ أُحِبُّكَ - كُلُّ الْمُدُنِ الْعَرَبِيَّةِ

تَتَظَاهَرُ ضِدَّ عِصْرِ الْقَهْرِ،

وَضِدَّ عِصْرِ النَّارِ،

وَضِدَّ الْأَنْظُمَةِ الْقَبَلِيَّةِ ..

وَأَنَا أَتَظَاهَرُ - حِينَ أُحِبُّكَ - ضِدَّ الْقَبْحِ،

وَضِدَّ مَلُوكِ الْمَلْحِ،

وَضِدَّ مُؤَسَّسَةِ الصَّحْرَاءِ .. (2)

الْحُبُّ فِي السِّيَاقِ السَّابِقِ يَعْنِي الْوَلَاءَ لِلْمَرْأَةِ وَدَعْمَ مَوْقِفِهَا، وَبِذَلِكَ تَعْدُو امْرَأَةٌ وَاحِدَةً رَمَزًا لِكُلِّ النِّسَاءِ.

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 189/2.

²- نزار قباني، م.ن.، 192/2.

وقد كشف نزارٌ عن موقفه بشكلٍ صريحٍ، حينَ أعلنَ عن نيَّتهِ قيادَةَ انقلابٍ يُقوِّي فيه حضورَ المرأةِ في المجتمع، مُعتمداً الحُبَّ استراتيجيَّةً قادرةً على هزِّ وجدانِ النَّاسِ، وتفعيلِ قواهم، وكشفِ ما هم بحاجةٌ ماسَّةٌ إليه، يقولُ:

دَعيني أقودُ انقلاباً ..

يوطدُّ سلطنةَ عينيكِ بينَ الشعوبِ،

دَعيني .. أُغيِّرُ بالحُبِّ وَجَهَ الحضارةِ .. (1)

ومن جهةٍ أُخرى، فإنَّ قولَ نزارٍ: "دَعيني .. أُغيِّرُ بالحُبِّ وَجَهَ الحضارةِ .." يُضمِّرُ فلسفةَ الأديانِ السماويَّةِ والشرائعِ الوضعيَّةِ، التي تدعو إلى الحُبِّ من أجلِ التغلُّبِ على الكراهيَّةِ، فهي رؤيا ليست نزاريةً النَّشأةً، لكنَّ نزاراً أطلقها في مكانها الصَّحيحِ، لتكونَ جزءاً أصيلاً ممَّا يدعو إليه.

واستراتيجيَّةٌ أُخرى اعتمدها نزارٌ، هي اللَّعبُ الصَّحيحُ بالكلماتِ، حتَّى غدَّتْ كلماتُه خارقةً لفرطِ قُرْبها من عامَّةِ النَّاسِ، "فهو شاعرٌ أنجزَ تاريخهَ الشعريَّ بالكلمةِ - اللُّغةِ، فكانتْ هذه اللُّغةُ هي التي تتكلَّمُ .. وكانتْ لُغةً تعبيريةً بامتيازٍ" (2).

فقد جعلَ شعرةً خبزاً يملكه النَّاسُ على اختلافِ فئاتهم، الغنيُّ منهم والفقيرُ، الصَّغيرُ منهم والكبيرُ، يقولُ: "أنا منذُ أولى خطواتي الشعريَّةِ تجنَّبتُ وعاءَ الغراءِ، وتعاملتُ مع المفرداتِ الموجودة على شفاهِ النَّاسِ. تعاملتُ مع الكلماتِ الساخنةِ، والطازجةِ، والمعجونةِ بلحمِ النَّاسِ، وأعصابهم، ووقائعِ حياتهم اليوميَّةِ ... من رحمِ الكلامِ اليوميِّ تخرجُ القصائدُ، وأيةٌ ولادةٌ لا تحدثُ في هذا الرَّحْمِ هي ولادةٌ قيصريَّةٌ، إنني ضدُّ الولاداتِ القيصريَّةِ في الشعرِ. ومهمتي كشاعرٍ هي أنْ التَّقَطَّ الشعرَ من أفواهِ النَّاسِ وأعيدَه إليهم" (3).

¹- نزار قبَّاني، الأعمال الشعريَّة الكاملة، 209/2.

²- ماجد السَّمرائي، خواطر وأفكار حول تجربة نزار قبَّاني الشعريَّة: المجلَّة النَّقافيَّة، ع 44، ص 29.

³- منير العكش، أسئلة الشعر، ص 188.

وهذه الرؤيا تُؤكِّدُ أنَّ القَصِيَّةَ التي يحملها الشاعرُ لَيْسَتْ قَصِيَّةً شَخْصِيَّةً، إِنَّمَا هي قَصِيَّةٌ مُجْتَمَعٌ بِأَسْرِهِ، عِنْدَئِذٍ لَنْ نَسْتَعْرِبَ نَبْوَةَ الشَّاعِرِ بِتَلَازُمِ حُدُوثِ الذَّبْحَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَفِعْلِ الْكِتَابَةِ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ نَبْوَعَتُهُ، فَقَادَتُهُ الْكِتَابَةُ فِي نِهَايَاتِ حَيَاتِهِ نَحْوَ الذَّبْحَةِ الْقَلْبِيَّةِ، يَقُولُ:

وَعِنْدَمَا يُحَاوِلُ الشَّاعِرُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ أَشْعَارِهِ
أَرْغَفَةً .. يَأْكُلُهَا الْجِيَاعُ لِلْخَبْزِ وَاللَّحْرِيبَةِ
فَلَنْ يَكُونَ الْمَوْتُ أَمْرًا طَارِئًا ..
لَأَنَّ مَنْ يَكْتُبُ يَا حَبِيبَتِي ..
يَحْمَلُ فِي أَوْراقِهِ ذَبْحَتَهُ الْقَلْبِيَّةَ .. (1)

إِنَّ وَجَعَ قَلْبِ نِزَارٍ لَمْ يَأْتِ مِنْ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، تَرْبِطُهُ بِهَا عِلَاقَةٌ حُبِّ شَخْصِيَّةٍ، إِنَّمَا هُوَ آتٍ مِنْ هُمُومِ النِّسَاءِ عَامَّةً، وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ خُرُوجَ الْحُبِّ لَدَيْهِ مِنَ الدَّائِرَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَتَحَوُّلَ الْمَرْأَةِ إِلَى قَصِيَّةٍ شَاغِلَةٍ، يَقُولُ:

لَا تَشْعُرِي بِالذَّنْبِ يَا صَغِيرَتِي .. لَا تَشْعُرِي بِالذَّنْبِ.
فَإِنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ أَحْبَبْتُهَا ..
قَدْ أَوْرَثْتَنِي ذَبْحَةً فِي الْقَلْبِ .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال الشعريَّة الكاملة، 273/2.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 276/2.

المرأة الخائفة المستسلمة

إنَّ عيشَ امرأةٍ معَ رجلٍ تكرههُ، يعني أن يسكنَ هذا الرجلُ في حلقها لا في قلبها، فهي كسمكةٍ تُحاولُ الاستسلامَ لصنارةٍ صيدٍ في حلقها والتعايشَ معها، فهل تستطيع؟! والمرأة الخائفة المستسلمة لرجلٍ يهينها ويضربها، هي امرأةٌ سلبيةٌ، قَبِلَتْ بالتفريطِ بكرامتها، والنزولِ إلى أسفلِ الدرجاتِ، حتَّى غَدَتْ نعجةً في صورةِ امرأةٍ، يقولُ:

المرأة التي تقولُ،

إنَّ بقاءها معَ رجلٍ يسلخُ جلدها كلَّ يومٍ

هو قسمةٌ .. ونصيبٌ

لا فرقَ بينها .. وبين النعجة ... (1)

إنَّ هذا الخطابَ النَّزاريَّ يحملُ دعوةً غيرَ مباشرةٍ إلى إعادة صياغة مفهوم القسمة والنصيب، إنَّها دعوةٌ إلى هدم الخطابِ الثقافيِّ العربيِّ، المؤسَّسِ على مقولاتٍ مُفَنَّعةٍ بقناع الدين.

في الإطارِ نفسه، يرى نزار قبَّاني في بعضِ الرجالِ نظاماً استعماريّاً، بما يعنيه الاستعمارُ من حُبِّ السَّيطرةِ والاستبدادِ، ويرى في بعضِ النساءِ تعاملًا سلبيّاً معَ هذا المُستعمرِ، أساسُهُ الاستسلامُ والتَّعاطي معهُ على أنه النموذجُ الأفضلُ، حتَّى أنَّ هُنالكِ نساءً يتوهَّمنَ بشرعيَّةَ بيتِ الاستبدادِ، وبأنَّه البيتُ الأساسُ والبيتُ المريحُ، يقولُ:

ثمَّة نساءٌ

يعتبرنَ (بيتَ الطَّاعةِ) مريحاً

كفندقٍ (دورسْتير) (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 111/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 109/5.

لذلك، كان من الصعب على نزار تحرير امرأة تنتمي إلى فئة النساء المستسلمات، اللواتي يُقدّمن أنفسهن على سبيكة من ذهب للرجال المُفترسين، ويقعن تحت أنيابهم ... هذه الفئة من النساء هي نفسها التي تخضع لعبودية الرجل خضوعاً كاملاً، وترى قيودها أساور من ذهب، فلا تضجر من واقعها، ولا تحسب نفسها مستعبدة، لذا يغدو تحريرها أمراً مستحيلاً، يقول:

كيف أستطيعُ تحريرَ امرأةٍ

تتكحلُّ بعبوديتها؟

وتعتبر قيودها أساور من ذهبٍ

تُخشخشُ في معصمتيها؟.. (1)

ومن الممكن أن يتسع الخطاب، فتغدو العبودية عند بعض النساء عبودية مال وترف، وما المقصود بالأساور والذهب سوى بريق المال، الذي يحول الإنسان إلى عبد، عندئذ يغدو الكحل والذهب والحلي ثمناً لعبودية صنف من النساء، لدى أصحاب الأموال.

من جهة أخرى، يرى نزار قباني أن مواجهة واقع المرأة السيئ، لا يكون إلا عبر امتلاكها قدرًا من القوة والشجاعة، فلا يمكن أن ينهض بواقع المرأة إلا المرأة، لذا يتحتم عليها أن تكون مُبادرةً لذلك، يقول:

المرأة .. والقطة ..

لهما قضيةٌ واحدةٌ

لا تحلُّ ..

إلا باستعمال الأظافر ... (2)

ثم إنَّ الجمع بين المرأة والقطة يجعل الوداعة والشراسة صفتين مشروعتين لدى المرأة، كما هو الحال عند القطة التي سرعان ما تتحول ألفتها إلى شراسة مسوغة ... وهذا الأمر ينسحب على البشر عموماً، ذلك أن الأصل في الطباع الإنسانية الميل الفطري إلى الأُنس والوداعة والألفة، بيد أن الدفاع عن النفس والقيم يتطلب القوة والشدة والعنف.

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 118/5.

²- نزار قباني، م.ن.، 120/5.

لكن واقع المرأة العربية غير ذلك، فهي تفتقر إلى الشجاعة التي تمكنها من نيل حقوقها وتحقيق حريتها، وهي - في الحقيقة - تريد من يُقاتل عنها، ويُقدم لها الحرية كوجبة جاهزة ... وفقر الشجاعة لدى المرأة العربية، ربما يكون سبب خوفها من مغادرة واقع اعتادت عيشه، إلى واقع يكلفها ثمناً غالياً، يقول:

تخافُ المرأةُ من الحرية

كما تخافُ القطةُ المنزلية

من مغادرة منزل ..

كانت تتناولُ فيه وجبات الطعام ..

مجّاناً ... (1)

وخوف المرأة العربية من الحرية ناجم عن ثقافة مشوهة، تحرص على تسويقها بعض المؤسسات الاجتماعية، التي غالت في التضييق على المرأة، وسلبتها حقوقاً صريحة في نصوص الدين.

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، 124/5.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: في سيكولوجيةِ المرأةِ

المُكوِّناتُ النَّفسِيَّةُ لِلْمَرْأَةِ

إنَّ فهمنا الخاطيءَ لحقيقةِ الأنوثةِ، يقودنا إلى مُمارسةِ سلوكٍ يُناقضُ الفِطْرَةَ التي خَلَقَ اللهُ المرأةَ عليها، إذ نَسعى دائماً إلى تطويعها لكي تشبهنا، وكأننا لا نرى فرقاً بينها وبينَ الرَّجُلِ إلا من ناحيةِ الشَّكْلِ فقط، بينما لا نَعترفُ بالفروقاتِ النَّفسِيَّةِ العميقةِ التي تميِّزُ الجنسينَ، وقد انطلقَ نزارٌ من فَهْمِهِ الصَّحيحِ لطبيعةِ الأنثى ولتكوينها النَّفسيِّ، فبرزتُ لديه العديدُ من الرؤى.

فهو يرى أنَّ بناءَ جدارٍ حولَ المرأةِ سوفَ يكونُ صعباً، لأنَّ هذا مُخالفٌ لطبيعتها، وكلُّ عملٍ يُخالفُ السُّننَ الكونيَّةَ أو الطَّبائعَ الإنسانيَّةَ ليسَ من السَّهلِ تحقيقُهُ، فالهواءُ لا يُعلَّبُ، والبرقُ - كحقيقةٍ كونيَّةٍ - لا يُوضَعُ في قارورةٍ، والمرأةُ لا تُغلَّفُ، وتحديدُ الإقامةِ، ورسمُ المساراتِ هي أمورٌ لا تتفقُ وطبيعةَ المرأةِ التوافقَ إلى الحُرِّيَّةِ، يقولُ:

ليسَ من السهلِ تعلبيكُ

لأنَّ الرِّيحَ لا تُعلَّبُ.

ولا من الممكنِ اعتقالُ أنوثتكِ

لأنَّ البرقَ .. لا يُوضَعُ في قارورة.

لا أريدُ تحديدَ إقامتكِ

فصعبٌ جدًّا ..

تحديدُ إقامةِ العصافيرِ ..

ولا أرغبُ في رسمِ مساراتكُ

فنهْداكِ يقتحمانِ البحرَ بلا بوصلةٍ ..

وعطركُ يخترقُ رجولةَ الرَّجَالِ

كأشعةِ اللايزرِ ... (1)

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 316/5 - 317.

والمرأة مُسْتغْنِيَةٌ بِمَعَارِفِهَا عَنْ مَعَارِفِ الرَّجُلِ، وهي قادرةٌ على صياغةِ فكرِها وحكمِها، وهي التي تصنعُ القوانينَ الخاصةَ بالأنوثةِ كما تصنعُ النحلةُ عسلَها، وكما تُنتجُ القصيدةَ موسيقاها، يقولُ:

لستِ بحاجةٍ إلى معارفي
فأنتِ مَوْسِوعَةٌ عَشِقٌ ...
ولستِ بحاجةٍ إلى حكمتي
وأيديولوجياتي المسروقة من الكتبِ
إنَّ جَسَدَكَ يصنعُ قَوانينَه
كما يُفرزُ الثَدْيُ حَلِيبَه ...
والنَّحْلَةُ عَسَلَهَا ..
والقصيدةُ موسيقاها ... (1)

وجعلُ صِنَاعَةِ القَوَانِينِ الخَاصَّةِ بالأنوثةِ مَهْمَةً جَسَدِيَّةً، يُعْطِي الجَسَدَ الأَنْثَوِيَّ وَظِيفَةً فِلسُوفِيَّةً تَعْبِيرِيَّةً، تَجْمَعُ بَيْنَ الشَّهْوَةِ وَالقَدَاسَةِ.

إنَّ ما نرفضُهُ في المرأةِ من سلوكياتٍ ومُكوِّناتٍ، هو - في الحقيقة - من علاماتِ الأنوثةِ، ولو أننا نظرنا بعمقٍ إلى المرأةِ، وتخلينا عن نظرتنا السطحيةِ، لرأينا الأشياءَ على حقيقتها، عندئذٍ سوفَ تبدو الأظافرُ المُتَوَحِّشَةُ مظهرًا من مظاهرِ الأنوثةِ، وما كنا نحسبُه في المرأةِ فوضى سوفَ نراهُ نظامًا، وما كنا نظنُه جنونًا سوفَ ندركُ أنه رِقِيٌّ عَقْلِيٌّ، لذا يحرصُ نزارٌ - وكلُّ مَنْ يملكُ نظرًا ثاقبًا - على بقاءِ تلكَ العلاماتِ، لأنَّ التَّفْرِيطَ بها يعني تفریطاً بمكوِّناتِ الأنوثةِ، يقولُ:

لا أريدُكَ أنْ تتخلَّى
عن شَعْرَةٍ واحدةٍ من بوهِيميَّتِكَ
أو عن ظفرٍ واحدٍ ..
من أظفاركِ المُتَوَحِّشَةِ.
أو أنْ تتخلَّى عن فصيلةِ دمكِ

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 318/5.

وفوضاك الرائعة ..

ففوضاك نظام ...

وجنُونك ..

هو أرقى حالة من حالات العقل ... (1)

وللمرأة تكوينٌ نفسيٌّ يجعلها تختلِفُ عن الرجلِ، وأيُّ محاولةٍ لتغييرِ مكوّنٍ من مكوّناتِ الأنثى الداخليّة، هو قتلٌ لصفةٍ من صفاتِ الأنوثة، وإذا استمرتْ محاولاتُ التغييرِ، فإنَّ مجموعَ المحاولاتِ يعني قتلاً للأنوثة، وهو - في الحقيقة - قتلٌ لعصافيرِ الحرّيةِ التي هي جزءٌ من مكوّناتِ المرأة، وقاتلٌ للعلاماتِ الأنثويّة، التي تجعلنا نشعرُ بما في المرأة من أنوثة، وفقدانُ الشعورِ يعني فقدانَ الشّعْر، يقولُ:

لن يُفِيدَ معكَ اللُّطْفُ .. ولا العُنْفُ ...

ولا إصلاحاتُ الأحداثِ ..

فقد خَلَقَكَ اللهُ هَكَذَا ...

وخلَقَكَ الشّعْرُ هَكَذَا ...

وأيةُ محاولةٍ لقتلكِ

ستكونُ قتلاً للحرّيةِ ..

واغتياًللاً للشّعْر ... (2)

والجمْعُ بينَ الجانبِ البيولوجيِّ، الذي هو مِنْ شأنِ الله، والجانبِ الوجدانيِّ الأنثويِّ، الذي يُصوِّرُهُ الشّعْرُ في قوله: "فَقَدْ خَلَقَكَ اللهُ هَكَذَا ... وخلَقَكَ الشّعْرُ هَكَذَا ..." يَطْبَعُ الشّعْرَ بطابعِ القداسةِ، ويربِّطُ وجودَهُ بوجودِ المرأةِ.

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، 319/5.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 320/5.

لقد بدأ نزارٌ عميقاً في نظره، فاستطاع أن يُبصرَ في المرأة ما لم يُبصره سواه، فقرأ كلُّ مكوناتها، وفسرَ ما استطاع من رموزها، وما لم يستطع قراءته، أدرك أنه جزءٌ غامضٌ من أجزاء الأوثة العالِيّة، التي لا قدرة له على شرحها، لذلك كان خطابُه موجَّهاً إلى امرأةٍ من نوعٍ خاصٍّ، تتفاعلُ فيها كلُّ مكونات الأوثة، فتغيّرُ وجه الأرض كما الزلزال، يقول:

ارمي جميعَ كلماتي في البحرِ ..
وتصرفني بحماقةِ زلزالٍ ..
فبينَ نهدَيْكِ .. ثيرانٍ إسبانيَّةٍ
لا أستطيعُ مقاومتها.
وبينَ شفتَيْكِ .. قبائلُ بدائيَّةٍ
لا أريدُ تحضيرها ..
وعلى حلمَيْكِ .. كتاباتُ سرِّياليَّةٍ
لا قُدرةَ لي على شرحها ..
وداخلَ سرِّتكِ .. آبارُ أرتُوَازِيَّةٍ
لا أريدُ اكتشافها .. (1)

ولعلَّ هذا الحشدُ للعبارةِ المتتابعَةِ، بما تحمِلُهُ من معانٍ متَّفِقَةٍ أو مُختلفَةٍ، يُشكِّلُ تعبيراً عن أجزاء الأوثة الغامضةِ المتعلِّقةِ ببيكولوجيَّةِ المرأةِ، وهو تعبيرٌ تختلطُ فيه معانٍ كثيرةٌ، اجتمعتُ في سياقٍ على النحوِّ الآتي: العُنفُ وحرارةُ المشهدِ في (الثيرانِ الإسبانيَّةِ)، العفويَّةُ والتلقائيَّةُ في (القبائلِ البدائيَّةِ)، الغموضُ في (الكتاباتِ السرياليَّةِ)، البعدُ والخفاءُ والغموضُ في (الآبارِ الأرتُوَازِيَّةِ).

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 321/5.

المبحث الرابع: في الأوثنة

الأوثنة رقي وحضارة

إنَّ بُلُوغَ الحضارة بُلُوغاً مُتكامِلاً يتحقَّقُ عبرَ الفهمِ الصَّحيحِ لمبادئِ الأوثنة ... وليسَ الانحطاطُ بناجِمٌ عن خطأٍ بمبادئِ النحرِ والصِّرفِ، إنَّما يكونُ عن قِصرٍ في فهمِ حقائقِ الأوثنة، ولذا فإنَّ كُلَّ قراءةٍ صحيحةٍ للجسدِ الأنثويِّ، هي قراءةٌ صحيحةٌ للحضارةِ، ودُخولُ حقيقيٍّ إليها، وبذلك تكونُ الحبيبةُ والحضارةُ شيئاً واحداً، يقولُ:

يغسلني حبُّك من بداوتي ..
يُشيلُ عني الرَّمْلَ والحجارةَ
يُدخلني في قصره المائيِّ كلَّ ليلةٍ
يُدخلني في زُرقةِ العبارةِ ..
وعندما أسألهُ:

من أنتِ يا حبيبتِي؟

يرفعُ لي عندَ وجهكِ الستارةَ
ثمَّ يقولُ: ها هيَ الحضارةُ ... (1)

لذلكَ يمكنُ القولُ إنَّ كُلَّ امرأةٍ تُقدِّمُ لنا حبًّا، هي امرأةٌ تُمارِسُ مَعَنَا فِعْلاً حضاريًّا، وتنفضُ عَنَّا الغبارَ، وتنقلنا إلى حضارتها ... وفعلُ الحبِّ تُقابلهُ زيادةٌ في الارتفاعِ والطُّموحِ، وزيادةُ الطُّموحِ وَجْهٌ من وجوهِ الحضارةِ، يقولُ:

أنتِ أعلى قَمَّةٍ في رحلتي
ليسَ من طبعي أنْ أهوى السُّفوحا
فأحبيني كثيراً .. أو قليلاً ..
كي تزيدني ارتفاعاً وطُّموحاً (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 765/2.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 257-256/5.

وجسدُ المرأةِ كتابٌ لا يُتاحُ إلا لمنَ يُحسِنُ قراءتَهُ، وفهمَ إشارتِهِ وأبعادهِ المُختلفةِ، ومنَ لا يُحسِنُ قراءتَهُ؛ يَبْقَ أُمِّيًّا جاهلاً بحقائقِ الأنوثةِ، فليسَ الأُمِّيُّ الحَقِيقِيُّ مَنْ لا يُتَقَنُّ قِراءةَ الحُرُوفِ والكَلِماتِ، إنَّما الأُمِّيُّ مَنْ لا يُتَقَنُّ قِراءةَ تَقافاتِ الأنوثةِ، التي تُمكنُهُ مِنْ بُلُوغِ الحضارةِ، يقولُ:

إنَّ جسدك ليسَ ضدَّ الثقافةِ ..

ولكنَّهُ الثقافةُ ..

ومنَ لا يقرأُ دفاترَ جسدك

يبقَ طولَ حياتِهِ .. أُمِّيًّا (1)

لذلكَ فإنَّ دخولنا إلى الحضارةِ مُرتبطٌ بقراءتِنا الصَّحيحةِ للمرأةِ، وتغييرِ نظرتِنا إليها، وإذا لم نُحسِنِ القراءةَ، ولم نُحسِنِ النَّظَرَ، فإنَّ المرأةَ ستبقى أماناً وليمةً نسعى لافتراسها، يقولُ نزار قبَّاني: "ما لم نُكفَّ عن اعتبارِ جسدِ المرأةِ "منسفاً" تغوصُ فيه أصابعُنا وشَهواتُنا، وما لم نُكفَّ عن اعتبارِ جسدِها جداراً نُجربُّ عليه شَهاماتِنا، ورصاصَ مُسدَّساتِنا، فلا تحريرَ إطلاقاً"⁽²⁾.

وكلُّ الولايمِ هي تكريسٌ للشَّهواتِ، وتغيبُ للنَّفكرِ والتَّأمُّلِ، لكنَّ مَعْرِضَ أزهارٍ واحداً يقودُنا إلى تأملاتٍ تكشفُ لنا حقائقَ كثيرةً، وهكذا، فإنَّ نزاراً يريدُ أن يجعلَ المرأةَ مَعْرِضاً نُبصرُهُ جيِّداً، ونكتشفُ كنوزَهُ، ونُدركُ حقائقَهُ، لكي يَنأى بنا وبِالمرأةِ عن واقعِ مَوبوءٍ بالتلوثِ النَّقافيِّ، يقولُ:

لن ندخلَ إلى نادي المُتَحَضِّرينِ

ما لم تتحوَّلِ المرأةُ لدينا

من شريحةِ لحمٍ

إلى معرضِ أزهارٍ ... (3)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشَّعريَّةُ الكاملةُ، 640/2.

²- منير العُكش، أسئلةُ الشَّعرِ، ص 180.

³- نزار قبَّاني، م.س.، 89/5.

لذلك، فإنَّ حوارنا مع المرأة سوف يكشفُ عن نفسه، إنْ كانَ حواراً حضارياً، نرتقي فيه مع المرأة إلى أعلى المستويات، أم مُناوَرَةً نسعى من ورائها إلى الحصولِ على الوليمة، وبذلك نكونُ قد فشَلنا في اختبارِ الحضارة، يقولُ:

قُلْ لي:
كيف تُقيمُ حواراً مع امرأةٍ جميلةً
تزوركُ في شِقَّتِكَ ..
أقلُّ لك، مَنْ أنتُ (1)

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 90/5.

الأُنُوثةُ صِفَةً جَامِعَةً وَأَبْعَادٌ غَيْرُ مُنْتَهِيَةٍ

وتأخذُ الأُنُوثةُ أبعاداً أُخرى، فهي المُعَادِلُ لِبِقَائِنَا، وبقاءُ الشَّعرِ نابِضاً بالحياة، وكأنَّها امتدادٌ لأُنُوثةِ عَشْتَارَ، الأُسْطُورَةَ التي كَرَسَتْهَا النُّصُوصُ القَدِيمَةُ رَمَازاً لِلخُصُوبَةِ والنَّمَاءِ ... وتبدأُ الأُنُوثةُ من أبسطِ الأشياءِ، وتَبْلُغُ الغَايَةَ عِنْدَ أبسطِ الأشياءِ، ولا تَحْتَاجُ إلى المُبَالِغَةِ في الزِينَةِ، فَتُصَبِّحُ الأشياءَ البسيطةَ مُكوَّناً عالياً من مُكوَّنَاتِهَا، وتبدو معها الأُنثى غَايَةً في الجَمالِ والرَّونقِ، يقولُ:

أريدُكِ أُنثى

لتبقي الحياةُ على أرضنا مُمكنَةً ..

وتبقى القصائدُ في عصرنا مُمكنَةً ..

أريدُكِ أُنثى

بزِينَتِكَ المدرسيَّةِ

وأطواقِكِ المعدنيَّةِ

وشعرِ طَوِيلٍ ورائِكِ يجري كذِبيلِ الحِصانِ

وحُمْرَةَ نَعْرِ خفيفةٍ

ورشَّةِ عَطْرِ خفيفةٍ

ولَمْسَةِ كُحْلِ خفيفةٍ (1)

والأُنُوثةُ ليستُ سلوكاً واحداً أو صِفَةً واحدةً، وإنما هي صِفَةٌ جَامِعَةٌ، وانطلاقاً من هذه الرؤيا، يدعو نزارُ حبيبتَهُ إلى أن تكونَ كُلُّ الأُنُوثةِ، وأن لا تُسْقَطَ من دفاترِ أُنُوثَتِها ورقةٌ واحدةً، يقولُ:

أريدُكِ أُنثى اليدينِ

وأُنثى بهسَهَسَةِ القُرطِ في الأذنينِ

وأُنثى بصوتِكِ .. أُنثى بصمتِكِ ..

أُنثى بضِعْفِكِ .. أُنثى بخوفِكِ

فكوني سألْتُكِ كُلَّ الأُنُوثةِ ..

لا امرأةً بَيْنَ .. بَيْنَ .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 823/2-824.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 826/2.

فهي المُعَادِلُ للرقِيّ، والجمالِ، والنَّماءِ، والرَّائِحَةِ العَبْقَةِ، فالحضارةُ أنثى، والقصيدَةُ الجميلةُ أنثى،
وسُنْبُلَةُ القمحِ وما تَقَدَّمُهُ من عطاءِ أنثى، وزجاجةُ العِطْرِ أنثى، والمُدُنُ العظيمةُ الشَّامِخَةُ أنثى،
والمُدُنُ المجروحةُ أنثى، يقولُ:

أريدُكِ أنثى ..

لأنَّ الحضارةَ أنثى ..

لأنَّ القصيدةَ أنثى ..

وسُنْبُلَةَ القمحِ أنثى ..

وقارورةَ العِطْرِ أنثى ..

وباريسَ - بينَ المُدُنِ - أنثى ..

وبيروتَ تبقى - برغمِ الجراحاتِ - أنثى .. (1)

وإنَّ تتابعَ جُمْلَةٍ منَ صِفاتِ الأنوثةِ في المقطعِ السَّابِقِ، يُفضي إلى تَبَعُّرِ المعاني، وتراكمها بما
يَسْجِمُ وأبعادَ الأنوثةِ ومدلولاتها اللانهائية.

ولأنَّ الأنوثةَ صِفةٌ جامعةٌ، ومكوّناتٌ غيرُ مُنتهيةٍ، فإنها تَنبُوُّ مكانةً تَعْلُو مكانةَ اللغةِ، فلا يُحيطُ بها
الكلامُ، ولا تظفرُ بها لغةٌ، يقولُ:

حاولتُ أسألُ: ما الأنوثةُ؟

ثمَّ عدتُ عن السؤالِ

فأهمُّ شيءٍ في الأنوثةِ

أنَّها ليستُ تُقالُ (2)

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، 827/2.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 294/4.

الأُنُوثةُ ثَوْرَةٌ وَدَعْوَةٌ إِلَى التَّحَرُّرِ

لقد عمدَ نزار قبَّاني إلى إعطاء الأُنثى بُعْدًا ثوريًّا ليبراليًّا، لِيُقَدِّمَ لنا مواقفَهُ التي جاءتْ على لسانِ فاطمةَ، التي تُصدِرُ أوَّلَ بيانٍ تُعلنُ فيهِ الثَّوْرَةَ على المُجتمعِ الذُّكوريِّ، المُتَحَكِّمِ في رسمِ أُنوثتها، وقد فعلتْ ذلكَ لتثبيتِ مكانتها، وتحقيقِ حُرِّيَّتها ... ثمَّ سرَّعانَ ما تتحوَّلُ ثوْرَةُ فاطمةَ إلى انقلابٍ تاريخيِّ، تتغيَّرُ فيهِ الأمورُ لِصالحِها، وتستلمُ السُّلطةَ، وتضعُ جميعَ الذُّكورِ الذينَ أخطَؤوا في رسمِ الأُنُوثةِ في السِّجْنِ، ذلكَ أَنَّهُم رَسَموها ولم يُلامسوا إصْبَعَ امرأةٍ، يقولُ:

تقوِّدُ فاطمةَ انقلاباً تاريخياً على جسديها ..
وتستلمُ السُّلطةَ.

تضعُ وزراءها في السِّجْنِ

ومُسْتَشاريها في السِّجْنِ

وقَيْسَ بنَ المُلَوِّحِ ، وجميلَ بَنِيْنَةَ

وجميعَ الشعراءِ العُذْرِيِّينَ في السِّجْنِ

وجميعَ الذينَ أَلْفوا في فنِّ الحُبِّ

ولم يُلامسوا إصْبَعَ امرأةٍ ... (1)

ولعلَّ ما يُفسِّرُ هذا الموقِفَ عندَ نزارِ قولُهُ: "غيرَ أنَّ ثَمَّةَ كُتَّاباً يستعوضونَ عن التَّجربةِ الحياتيَّةِ بالتَّجربةِ التَّقافيَّةِ، فيتحدَّثونَ عن الأسفارِ دونَ أن يُسافروا، ويصوِّرونَ العِشْقَ دونَ أن يعشقوا، ويصفونَ تفاصيلَ الجنسِ دونَ أن يُلامسوا ظُفْرَ امرأةٍ ... ما أكثرَ كُتَّابنا الذينَ يعيشونَ على تجاربِ غيرِ تجاربِهِم، وبأجسادِ غيرِ أجسادِهِم! فيستعبدونَ أفكارَ ماركوز، وعبئيَّةَ كافكا، ولامعقولَ بيكيت، وساديَّةَ ميللر، وشهواتِ الليدي شاترلي الإنجليزيَّةِ، ونهمَ مدام بوفاري الفرنسيَّةِ"⁽²⁾.

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشَّعريَّةُ الكاملة، 4/237.

²- نزار قبَّاني، الأعمالُ النَّثريَّةُ الكاملة، 7/396.

وتستمرُّ فاطمةُ في انقلاباتها، وترفضُ جميعَ النصوصِ التي عُيِّبَتْ فيها المرأةُ، وتقرِّدُ الذُكُورُ أصحابُ السُّلْطَةِ بِكِتَابَتَيْهَا، وتحديدِ معالمِ الخِطَابِ الثَّقَافِيِّ فِيهَا، لَذا فَهِيَ نُصُوصٌ اجْتِهَادِيَّةٌ مَشْكُوكٌ بِصِحَّتَيْهَا. وتُؤَاصِلُ فِتُوحَاتِهَا، لَكِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى أَرْضٍ خَصْبَةٍ، تَجِدُ فِيهَا مَنْ يُسَاعِدُهَا، وَتَحْتَاجُ إِلَى لُغَةٍ بِسَعَةِ الْبَحْرِ، لِتُعَبِّرَ عَنْ نَفْسِهَا بِشَكْلِ حُرٍّ وَمُرِيحٍ، يَقُولُ:

ترفضُ فاطمةُ جميعَ النصوصِ المشكوكِ بِصِحَّتَيْهَا
وتبتدئُ من أَوَّلِ السِّطْرِ ..
تُمزِّقُ جميعَ المخطوطاتِ التي أَلْفَهَا الذُّكُورُ
وتبتدئُ من أِبْجَدِيَّةِ أُنُوثَتِهَا.
ترمي جميعَ كُتُبِهَا المدرسيَّةِ،
وتقرأ في كتابِ فَمِي.
تُهَاجِرُ من مُدُنِ الغُبَارِ
وتتبعني حافيةً إِلَى مُدُنِ المَاءِ.
تقفز من قطارِ الجاهليةِ
وتتكلمُ معي لغةَ البحرِ .. (1)

ولعلَّ ما يُعْطِي أُنْثَى نِزَارٍ بُعْدًا ثُورِيًّا لِيَبْرَالِيًّا، تَلْكَمُ القَرَارَاتُ الَّتِي نَفَذَتْهَا، وَالتَّحَوُّلَاتُ الَّتِي بَدَأَتْهَا، فَهِيَ نَافُورَةٌ مَاءٍ، وَليستَ حَجْرًا مُكُومًا، وَهِيَ حَمَامَةٌ، وَليستَ قَصيدَةً موزونةً مَعْقُودَةً بِقَوَافِيهَا، وَهِيَ مَلِيكَةٌ تَكْتُبُهَا القِصَائِدُ، وَليستَ جَارِيَّةً، يَقُولُ:

تُعْجِبُنِي قَرَارَاتُ فَاطِمَةَ
عِنْدَمَا تَتَحَوَّلُ مِنْ حَجَرٍ مُسْتَدِيرٍ
إِلَى نَافُورَةٍ مَاءٍ فِي بَيْتِ أُنْدَلُسِيٍّ
وَمِنْ قَصيدَةٍ موزونةٍ وَمُقَفَّاةٍ
إِلَى حَمَامَةٍ تَحُطُّ عَلَى كَيْفِي.
وَمِنْ جَارِيَّةٍ فِي بِلَاطِ هَارُونَ السَّادِسِ عَشْرٍ
إِلَى مَلِيكَةٍ فِي بِلَاطِ الشُّعْرِ ... (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال الشعريَّة الكاملة، 4/239.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 4/241.

ويتعزّر البُعْد اللبيريُّ عندَ فاطمةَ، حينَ يُعَلِنُ نزارُ صراحةً أنَّ اللبيريَّةَ هي امرأةٌ، وأنَّ ثقافةَ الحريةِّ نقلها عن فاطمةَ، وأنَّ الرَّجُلَ لم يمنحهُ شيئاً، لأنَّ ثقافتهُ ثقافةُ مُخابراتٍ، يقولُ:

وعلى يَدَيِ فاطمةَ
تعلّمتُ أنَّ اللبيريَّةَ هي امرأةٌ.
وأنَّ الرَّجُلَ - مهما تتقفَ -
فهوَ رجلُ مُخابراتٍ ... (1)

ثمَّ يصلُ إلى ذرّوةٍ ما يُريدُ أن يصلَ إليه، وينقلنا إلى حقيقةٍ، هي أنَّ التقليلَ من شأنِ الأنثى، أو إلغاءَ أدوارها جزئياً أو كلياً، يُعدُّ جهلاً بعظيم ما منحهُ اللهُ - تعالى - لها، ونتيجةً لذلكَ يمكنُ القولُ إنّ كلَّ عملٍ عظيمٍ تستطيعُ الأنثى القيامَ بهِ، يَدُلُّ على أنَّ اللهُ - تعالى - مكنها مِنْهُ، وليسَ لنا - بعدَ ذلكَ - أن نُلغِي قُدْرَةَ منحها اللهُ لها. وإذا عقَدنا على أنَّ ماهيَّةَ الشَّعرِ أنثى، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الأنثى، لا يعرفُ حقيقةَ الشَّعرِ، ولنَ يلمَسَ عملاً واحداً عظيماً من أعمالِ اللهِ، يقولُ:

مَنْ لم يعرفِ فاطمةَ
لمَ يعرفِ ما هي أعظمُ أعمالِ اللهِ ..
ولمَ يعرفِ ما هو الشَّعرُ .. (2)

فاطمةُ - إذن - ليستَ سوى قِناعِ لبسهِ نزارُ، وعبرَ بلسانها عن مواقفه، حولَ ضرورةِ إعادةِ النَّظَرِ في الموروثِ الثقافيِّ، ورفضِ الخطابِ السائدِ، الذي تفرِّضُ نُصوصهُ السُّلطةَ القمعيَّةَ، لذلكَ عدّها أهمَّ امرأةٍ بينَ نساءِ العالمِ، وهذا يعني أنَّ ما قرَّرتُهُ فاطمةُ، نبعَ أساساً من رؤياها ... ثمَّ إنّ ارتباطَ اسمها بالسُّلاحِ يَضَعُها في السِّياقِ الثَّوريِّ، يقولُ:

فاطمةُ .
هي أهمُّ امرأةٍ بينَ نساءِ العالمِ.
وأنا، أهمُّ رجلٍ أحبَّها
وحملَ السُّلاحَ معها .. (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال الشعريّة الكاملة، 244/4.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 245/4.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 246/4.

المبحث الخامس: في الجنس والمرأة والوطن

معضلات الجنس في الثقافة العربية

يتحدث نزار عن عدم التوافق الجنسي بين الرجل والمرأة في المجتمع الشرقي، ويعزو ذلك إلى اختلاف الوجهة التي ينشدها كل منهما، فالمرأة تميل إلى الاستقرار الجنسي مع شريكها، ويُعد هذا جزءاً من استقرارها العاطفي، أما الرجل فيرغب في السفر إلى جميع بقاع الجنس... لذا فإن المرأة يفتيها رجل واحد، بينما الرجل يتمنى كل النساء، يقول:

الجنس لدى المرأة استيطان
ولدى الرجل .. سفر ... (1)

ولا يوجد تكافؤ جنسي بين الرجل والمرأة في المجتمعات العربية، فالرجل هو المتحكم في هذه العلاقة، هو الذي يبدأ، وهو الذي ينتهي، ولذا فالمرأة - غالباً - غير مشاركة في ذلك، وتنتهي العملية الجنسية دون حدوث التناغم المشترك بين الطرفين، أما المجتمعات الحية التي تحيا بشكل طبيعي (مدن الماء)، فإن الجنس فيها فعل مشترك بين الرجل والمرأة، يبدأان معاً، وينتهيان معاً، ويعود ذلك إلى اختلاف ثقافة الجنس بين الشرق والغرب، يقول:

الجنس في مدن الماء
يؤديه عازفان ..
أما في مدن الرمل
فالجنس عزف على ربابة النرجسية
يؤديه عازف واحد
على آلة واحدة ..
ثم يترك جمهوره في ذروة النشوة ..
وينسحب .. (2)

¹- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 101/5.

²- نزار قباني، م.ن.، 102/5.

ويدعمُ نزارُ فكرةَ التَّناغمِ المُشتركِ في العمليَّةِ الجنسيَّةِ، يقولُ: "إنَّ الجنسَ، مهما قيلَ فيه، هو حوارٌ ذكيٌّ بينَ جسدين. هو توغُّلٌ في غاباتِ الفرح. هو معركةٌ أولادٍ على سريرٍ من الرَّمَلِ النَّاعمِ .. لا غالبَ فيها ولا مغلوبٌ"⁽¹⁾.

لَقَد كَانَ الْجِنْسُ حَرَكََةً فِطْرِيَّةً طَبِيعِيَّةً، تُمارِسُهُ جَمِيعُ الكائِناتِ بَحْرِيَّةً وَعَفْوِيَّةً، ثُمَّ تَرَكَمَتْ أَعْرَافُ اجْتِمَاعِيَّةٍ، فَجَعَلَتْ تُغْفَهُ بِالنُّهْمِ، وَتَضَعُ حَوْلَهُ القِيودَ، حَتَّى غَدَا مُضَخَّمًا، يَقُولُ: " لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ أَنَّ الْجِنْسَ وَحْشٌ يَفْتَرِسُ كُلَّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ، عَلَى العَكْسِ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الْجِنْسَ قَطٌّ مَنْزِلِيٌّ أَلِيفٌ، وَأَنَا نَحْنُ الَّذِينَ رَوَّعْنَا، وَخَوْفْنَا، وَجَعَلْنَاهُ يَتَسَكَّعُ فِي الأَزْقَةِ الضَّيْقَةِ، وَيَنَامُ بَيْنَ الخِرَائِبِ ... فِي مجتمعاتِ السَّحَرِ وَالتَّجِيمِ وَالتَّخْلُفِ وَحَدَاها تَتَضَخَّمُ فِكْرَةُ الْجِنْسِ حَتَّى تُصْبِحَ زَائِدَةً دُودِيَّةً مُلْتَهَبَةً. أَمَّا فِي المَجتمعاتِ التي تَتَنَفَّسُ نَفْسًا طَبِيعِيًّا، وَتَحْيَا حَيَاةً سُوِيَّةً، فَإِنَّ الْجِنْسَ يَصْبِحُ نَشَاطًا عَادِيًّا كَارْتِشَافِ فَنجانِ القَهْوَةِ الصَّبَاحِيِّ "⁽²⁾. وَيَقُولُ:

في البدء ..

كَانَ الْجِنْسُ غَزَالًا صَحْرَاوِيًّا جَمِيلًا

يَرعى العُشْبَ بَحْرِيَّةً

وَيَتَنَفَّسُ بَحْرِيَّةً ..

وَيَغْتَسِلُ بِمِياهِ الينابيعِ بَحْرِيَّةً

ثُمَّ جَاءَتْ شَرْطَةُ الأَدَابِ

فَوَضَعَتْ القَيْدَ فِي سَاقِيهِ النَّحِيلَتَيْنِ

وَاتَهَمَّتُهُ بِالإِبَاحِيَّةِ ..

وَخَدَشَ الحِياءَ العَامَ

وَوَضَعَتْهُ مَعَ غَزالِ الأَيَّةِ،

فِي السَّجْنِ الانْفِرَادِيِّ ... ⁽³⁾

¹- نزار قبَّاني، الأعمال النَّثْرِيَّةُ الكاملة، 347/7.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 332/7.

³- نزار قبَّاني، الأعمال الشُّعْرِيَّةُ الكاملة، 104/5.

وقد كان جهلُ الرِّجالِ إيقاعاتِ جسدِ المرأةِ من الأسبابِ التي أدَّتْ إلى زيادةِ الفجوةِ بينَ الجنسينِ، ولو أنَّهم علِّموا هذه الإيقاعاتِ، لأحسَّنوا فهمها، ولأصبَحوا عازِفي موسيقا جيِّدين ... ثم إنَّهم لا يُجيدونَ قراءةَ المرأةِ، وهذا سببٌ آخرٌ يُؤدِّي إلى زيادةِ الهوةِ بينَ الجنسينِ، فمتى ما تمكَّنَ الرَّجُلُ من فهمِ لُغةِ الأنوثةِ، ضاقتُ الهوةُ، والتَحَمَّا معاً، يقولُ:

الجَسَدُ الأُنثويُّ لُغةٌ

وأكثرُ الرِّجالِ

لم يقرؤوا في حياتهم كتاباً .. (1)

ولعلَّ جهلَهُم إيقاعاتِ الأنوثةِ ولُغَتَها، كانَ العِلَّةَ في عدمِ استثمارِهِم خصوبةَ أرضِ المرأةِ بشكلٍ صحيحٍ، بل أسهموا في قتلِ الخصوبةِ، يقولُ:

جَسَدُ المرأةِ

أرضٌ زراعيَّةٌ

وجَسَدُ الرَّجُلِ: "بولدوزر" .. (2)

لذلكَ بقِيَتِ الفجوةُ بينَ الجنسينِ، المرأةُ في وادٍ والرَّجُلُ في وادٍ آخرٍ، فَهُما مثلُ كنيستِهِ ومقهي رصيفٍ، وهل تلتقي كنيستُهُ يوماً مَعَ مقهي رصيفٍ؟! يقولُ:

جَسَدُ المرأةِ كنيستُهُ ...

وجَسَدُ الرَّجُلِ ..

مقهي رصيفٍ ... (3)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 98/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 99/5.

³- نزار قبَّاني، م.ن.، 100/5.

المرأة والوطن لدى نزار

لقد ربطَ عددٌ من النقادِ المرأةَ في شعرِ نزارِ بالوطن، وقد كانَ أحمدُ بسّامُ ساعي واحدًا من هؤلاء، يقول: "شعرُ نزارِ كلُّهُ ارتباطٌ بالوطن، وبطبيعته، وبأرضه، إنه حينَ يرحلُ، وحينَ يُفكرُ، وحينَ يكتبُ، وحينَ يتغزّلُ، يُلابِسُهُ وطنُهُ، وحينَ يُحبُّ يَشُمُّ في فمِ حبيبتهِ رائحةَ الحقولِ، وتتسُمُّ عليه ضفائرها أنفاسَ القطعانِ، ويهبُّ عليه من عطرِها شذاً بلاده..."⁽¹⁾.

وترى بيانكا ماضيّة "أنَّ حبَّه للمرأة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بحبِّ الوطن، وبحبِّ الأرضِ، لا يستطيعُ أن يُحبَّها بعيداً عن وجعِ الأرضِ والتاريخِ"⁽²⁾.

ويقولُ محمود محمدُ أسد: "لا يفصلُ الشاعِرُ بينَ حبِّ المرأةِ وحبِّ الوطنِ، فكلاهما يصبُّ في نهرٍ واحد، ويستمدُّ من الآخر، فالمرأةُ مُلهمةُ الشاعِرِ، والوطنُ عقدُ حبِّ موثق"⁽³⁾.

ويؤكدُ نزارُ رؤياه، فيقرُّ بأنَّ كلَّ امرأةٍ أحبَّتهُ هي الوطنُ الذي يَمَنَحُهُ الشعرَ، ويُعبِّرُ فيه عن أحزانه الموغلة في الزمَن، يقولُ:

ما بينَ نَهْدَيْكَ .. شعرٌ غيرُ مُكْتَشَفِ
وبينَ عَيْنَيْ .. حُزْنٌ ما له زَمَنُ
فكيفَ أزعُمُ أني دُونَما وَطَنِ؟
وكلُّ أنثى أَحَبَّتَنِي، هي الوَطَنُ ...⁽⁴⁾

¹- أحمد بسّام ساعي، حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه، ص 494.

²- بيانكا ماضيّة، معالم النفس عند نزار قبّاني ما تزال تتفجّر: مجلّة الفكر العربي، ع 82، ص 105.

³- محمود محمد أسد، نزار قبّاني بين مطرقة وسندان النقاد: مجلّة آفاق المعرفة، ع 14، ص 205.

⁴- نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، 48/5.

إذا كان الأمرُ على هذا النحوِ مِنَ الصُّعُوبَةِ، فإنَّ نزاراً يَنْشُدُ السَّلَامَ، ولعلَّ الأُنثى التي أَحَبَّتُهُ وَأَحَبَّهَا تَمَنُّهُ هذا السَّلَامَ، ذلكَ أَنَّها هي الأُخرى تَبَحُّثُ عَنِ السَّلَامِ، وتلتقي معه في شعوره بالحاجةِ إلى الأَمَنِ ... إِنَّهُ السَّلَامُ المَنْشُودُ في وَطَنِ يَسُودُهُ القَمْعُ، يقولُ:

اسْتَيْقِظِي ..

إِنِّي لأُبْحَثُ مِنْذُ آلاَفِ السَّنِينَ

عَنِ السَّلَامِ ...

وَمَا وَجَدْتُ سِوَاكَ،

عاصِمَةَ السَّلَامِ ... (1)

فَحَبِيبَةُ نزارٍ - على هذا النحوِ - هي المِلاذُ الأَمَنِ، بالمُقَابَلَةِ مَعَ ما يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ هَجَمَاتٍ قاسِيَةٍ وَعَظِيمَةٍ، وَمَعَ ما يَفْرِضُهُ ذلكَ مِنْ شُعُورٍ بِالغُرْبَةِ والنَّفْيِ، يقولُ:

في بعض الأحيانُ

تلوحُ لي سُرَّتُكَ .. على خَريطَةٍ منفايُ

مَلْجَأً صَغِيرًا ..

يحميني من أسنانِ البَرْدِ ..

وَجُنُونِ العاصِفَةِ ... (2)

وأخيراً، فقد ذهبَ بعضُ النقادِ إلى القولِ بأنَّ نزاراً قد خلطَ همومَهُ في المرأةِ مع همومِهِ في السِّيَاسَةِ، بل إنَّ موضوعاتِ المرأةِ والسِّيَاسَةِ وقضايا الإنسانِ قد حيكَتُ في نسيجِ واحدٍ، حتَّى غدا من الصَّعْبِ الفصلُ بينها، وكأنَّ صورةَ المرأةِ في شعرِ نزارٍ تدخلُ في جوهرِ الموقفِ الإنسانيِّ والجماليِّ من قضايا الوطنِ والحريَّةِ. ورأى بعضهم أنَّ نزاراً يربطُ بينَ تحريرِ المرأةِ وتحريرِ الوطنِ، انطلاقاً من كونِ المرأةِ وطناً نفسياً، لا يمكنُ فصلُهُ عن الوطنِ الجغرافيِّ.⁽³⁾

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 70/5.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 96/5.

³- يُنظر: كاظم حمد محراث، ظاهرة نزار قبَّاني الشعريَّة، ص 185، 189؛ ميرفت دهان، نزار قبَّاني والقضيَّة الفلسطينية، ص 46؛ يحيى محمَّد الحاح، قراءة في أدب نزار قبَّاني، ص 147.

المبحث السادس: الجدل النقدي حول المرأة والحُب في شعر نزار

لقد ذهب فريق من الباحثين إلى القول بسطحية نظرة نزار إلى المرأة، واقتصارها على الجانب المادي المغرق في الحسية، وقد خلصوا إلى أن نزاراً ليس بشاعر المرأة، إنما هو شاعر جسد المرأة، إذ إنه لا يتحدث عنها بقدر ما يتحدث عن جسدها⁽¹⁾. وهذا يحمل لنا انطباعاً حول اهتمام نزار بالمرأة جسداً لا غير، تقول سهيلة حماد: "المرأة في نظر نزار جسد فقط، وما يربطه بها هي أمورٌ عاديةٌ بحتة، تلك الأمور التي تشبع غرائزه وشهواته"⁽²⁾.

وجاءت دراسة بروين حبيب لشعر نزار على نطاقٍ أوسع من الدراسات التي سبقتها، فبينت أن حضور المرأة فيه لم يكن حضوراً جسدياً فقط... بل حاول نزار التغلغل في عالمها، وإضاءة الجوانب الإنسانية مؤكداً ضرورة التمسك بالدفاع عنها، لأنها قضية واحدة لا تتجزأ، فهي المجتمع، لأنها الأم والأخت والحبيبة والرفيقة والمناضلة... التي تؤدي دورها في الحياة بفعالية⁽³⁾.

وقد ذهب محيي الدين صبحي مذهباً آخر، يقول: "إن الجانب الجمالي قد تغلب على الجانب الغريزي عند نزار منذ تجاوزه المراهقة، وإن صورة الحسية تستحيل إلى جمال فني، لا يصلح إلا للنشوة الشعرية والتذوق الفني الرفيع، فهو ليس شاعر شهوة بقدر ما هو شاعر تذوق وتأمل وانفعال فني، يخضع مرثياتِهِ لسحر الكلمات، وفتنة تشكيل الصور الجميلة في ذاتها"⁽⁴⁾.

ودعم جبرا إبراهيم جبرا فكرة الجمالية في شعر المرأة عند نزار، إذ رأى أن "شعره تحرير جمالي أكثر منه ثورة جنسية"⁽⁵⁾.

ثم جعل يوازن بين الحُب والجنس عند نزار، وبين الحُب والثورة الجنسية عند الغرب، وذلك من أجل تفسير ما يحمله من تصورات حول شعر المرأة النزارية، مستنداً إلى نصوصه الشعرية، يقول: "إن الثورة الجنسية هناك هي ثورة في اللحم والغريزة والمباشرة، والتحرير النزارية، مهما يحم حول اللحم والغريزة، يبقى في المداورة والتناغي واللعب وهو سر كل فن. الحُب في الغرب

¹- يُنظر: شاكر النابلسي، الضوء واللعبة، ص 415؛ محمد هذارة، دراسات في الأدب العربي الحديث، ص 142.

²- سهيلة حماد، من عمق الروح وصلب الفكر، ص 58.

³- بروين حبيب، تقنيات التعبير في شعر نزار قباني، ص 236.

⁴- محيي الدين صبحي، الكون الشعري عند نزار قباني، ص 72.

⁵- جبرا إبراهيم جبرا، النار والجوهر، ص 139.

ضِيَعَتْهُ اللَّعْبَةُ الْجِنْسِيَّةُ، التي لم يَعُدْ لِلْجَمَالِ دورٌ فيها، والحُبُّ عندَ نزارٍ هو اللَّعْبَةُ التي يلعبُ حتَّى الجنسُ دوراً جماليّاً فيها⁽¹⁾. لذا يُمكنُ القولُ إنَّ جبرا لا يُلغي الإحساسَ الجِنسيَّ لدى نزارٍ، إنّما أرادَ تكريسَ فكرةَ الجماليَّةِ في شعرِ المرأةِ عندهُ.

ويرى إحسان عبّاس أنَّ المرأةَ في شعرِ نزارٍ تُشكِّلُ موضوعاً له أبعادُهُ المُختلفةُ، التي تبدأُ من أشيائها وحالاتها وحركاتها وصولاً إلى الحديثِ عن مُشكلاتها حديثاً سيكولوجياً⁽²⁾. ولعلَّ في ذلك رداً على مَنْ ذهبوا إلى القولِ بسطحيَّةِ نظرةِ نزارٍ إلى المرأةِ، وأنَّها لا تتجاوزُ مظاهرَ الجسدِ، وما يستدعيه منْ غرائزَ وشهواتِ.

ويلتقي معَ هؤلاء السَّعيد الورقي، الذي يرى أنَّ نزاراً شاعراً جماليِّ مُتألِّق، جعلَ المرأةَ موضوعاً رئيساً في شعره، وعبرَ من خلاله عنْ موضوعاتٍ كثيرةٍ⁽³⁾.

أمَّا يحيى محمد الحَلح، فيرى أنَّ نزاراً "يؤمنُ بثنائيَّةِ الجسدِ والروحِ، ولا يؤمنُ بالفصلِ بينهما، ويرفضُ مذهبَ العذريِّين الذين يُقدِّسونَ المرأةَ، ويعتبرونها (تُحفةً) يجبُ ألا تُخدشَ، ويرفضُ الماديِّين والإباحيِّين الذين لا يروونَ في المرأةِ إلا وسيلةً لإشباعِ نهمهم الجِنسيِّ، إنَّهُ ينظرُ إلى المرأةِ بطبيعتها البشريَّة كما هي، ويُعطي لكلِّ من روحها وجسدها حقَّه"⁽⁴⁾.

وذهبتُ فدوى عبّاس إلى القولِ: "إنَّ الذينَ اعتبروا نزاراً الشاعراً المُغرِقَ في الحسيَّة، أو أنَّ شعره ليسَ إلا تكريساً للنَّهْدِ أو الشِّفَّةِ كمركزِ جذبٍ جسَميِّ، لم يُحالفهمُ التوفيقُ في رأيهم"⁽⁵⁾. فإذا كانتْ مرحلةُ نزارٍ الأولى ذاتَ لغةٍ مضمفورةٍ بالجسدِ، أو تدرجُ تحتَ الشعرِ الشَّهوانيِّ، والكتابةِ الشَّهوانيةِ، فهذا لا يعني استمراريةَ نزارٍ في هذا الدَّربِ، فقد تحوَّلَ وتغيَّرَ، وجاءَ بقصائد ذاتِ مكنوناتٍ إنسانيَّةٍ وكونيَّةٍ وملحميَّةٍ... لقد تحوَّلَ عنْ أنثى الرِّغائبِ والاسترخاءِ إلى أنثى أخرى أكثرَ عمقاً⁽⁶⁾.

¹- جبرا إبراهيم جبرا، النَّارُ والجوهر، ص 139.

²- يُنظر: إحسان عبّاس، اتِّجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 137-138.

³- يُنظر: السَّعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، ص 374، 377.

⁴- يحيى محمد الحَلح، قراءة في أدب نزار قبَّاني، ص 151.

⁵- فدوى عبّاس، نزار قبَّاني شاعر هذا العصر، ص 206.

⁶- يُنظر: فدوى عبّاس، م.ن.، ص 202، 206، 254.

ولقد أوفتُ على الغاية حينَ عَقَبْتُ على قولِ نزارٍ:

عُصفورةَ قلبي. نَيْساني
يا رملَ البحر، ويا غاباتِ الزَيْتونِ
أشعرُ بالخوفِ من المجهولِ .. فأويني
فأنا من بدءِ التَّكوينِ
أبحثُ عن وطنٍ لَجَبيني ..
عن شعرِ امرأةٍ ..
يكتنُّني فوقِ الجُدُرانِ .. ويمحوني (1)

تقول: "لقد غابتُ العناصرُ الماديَّةُ المحضَّة، لقد وجدنا صَبواتِ الرُّوح، لا صَبواتِ الجَسَد، ولتصبحَ المرأةُ حَبَّةَ الرَّمَلِ، ولتصبحَ المرأةُ روحاً لا جَسداً، لقد اختفى جسدُ المرأةِ. لقد انتقلَ الشَّاعرُ من مرحلةِ الحسيَّةِ إلى المرحلةِ الأعمقِ، إلى الحُبِّ الحَقِيقِيِّ، لا الحُبِّ العابرِ، انتقلَ إلى الحُبِّ الذي تتعانقُ فيه الأرواحُ لا الأجسادُ، إنَّ حبيبتهُ هي غاباتُ الزَيْتونِ المَجروحةِ، إنَّ حبيبتهُ تُجسِّدُ وطنه الذي ينلظى بجراحاته" (2).

ويَنفَقُ مع فدوى عبَّاسَ جليلِ كمالِ الدِّين، الذي يرى أنَّ نزاراً " ينبشُ عالمَ المرأةِ الدَّاخلي، عالمَ الرُّوح، ويبرِّرُ كونهَ شاعرَ المرأةِ. إنَّه يُفسدُ اتِّهامَ البعضِ بأنَّه شاعرُ صُورٍ مسطَّحةٍ، ها هو يُنقَّبُ في أغوارِ الرُّوح، لنقلَ إنَّه بدأ يتجاوزُ السُّطوح" (3).

نخلُصُ إلى أنَّ عدداً من النُّقادِ سَعَوْا إلى تجريدِ نزارٍ من شعرِ المرأةِ والحُبِّ، مُؤكِّدينَ على أنَّ معظمَ ما قاله يقعُ في دائرةِ الغزلِ الحسِّيِّ الصَّريحِ، الذي لا يتعدى مفاتِنَ الجَسَدِ الأنتويِّ، وما يُثيرُهُ من شَبَقٍ وشَهواتٍ، ولم يلتفتوا إلى شعره الذي يُخاطبُ إنسانيَّةَ المرأةِ.

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ الشعريَّةُ الكاملة، 39/2-40.

²- فدوى عبَّاس، نزار قبَّاني شاعر هذا العصر، ص 250.

³- جليل كمال الدِّين، الشعرُ العربي الحديثُ وروح العصر، 341.

وقد غالى هؤلاء فقالوا إنّ المرأة لم تكن قضيةً عند نزار، وإنّ شعرة لم يقدّم لها شيئاً، فهو ليس شاعرَ المرأة، وليس شاعرَ الحبِّ، إنّما هو شاعرُ الجنس، وشاعرُ النهود، وشاعرُ اللذة، وشاعرُ السرير⁽¹⁾.

وقد احتكم آخرون إلى نصوص نزار الشعرية، ولم يحفلوا بالأحكام الإجمالية العاجلة الخالية من التعليل، ولم يلقوا اهتماماً بوجهات النظر الانطباعية التي صدرت عن نقاد سابقين، بل جعلوا يقتحمون النصوص النزارية، فجاءت تصوراتهم وأحكامهم النقدية مُنصّفة لشعر نزار، مبيّنة قيمة الفنية والاجتماعية والسياسية، كما فعل كلُّ من جبرا إبراهيم جبرا، ومحيي الدين صبحي، وفدوى عباس... فبدأ نزار عندهم شاعرَ المرأة، وشاعرَ الحبِّ، وبالمقدار نفسه بدأ شاعرَ السياسة⁽²⁾.

¹- يُنظر (بخصوص الألقاب التي أُطلقت على نزار): محمد هذارة، نزار قبّاني وقصته مع الشعر، ص 21 ؛ أحمد زيادة، نزار عاشق المرأة، ص 94 ؛ سهيلة حمّاد، من عمق الرّوح وصلب الفكر، ص 58 ؛ عبد الجبار عباس، دراسة جديدة في الشعر العربي المعاصر، ص 40 ؛ نديم نعيمة، الشعر والمرأة ونزار قبّاني، ص 43 ؛ محمّد السنوسي، من أحاديث السنوسي، ص 105.

² يُنظر (بخصوص الألقاب الأخرى): جبرا إبراهيم جبرا، النّار والجوهر، ص 139؛ إحسان عباس، اتّجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 135؛ جلال الشريف، نزار قبّاني محاولة لتحديث الكلاسيكية الجديدة، ص 11؛ ميشال جحا، نزار قبّاني: مجلة الفكر العربي، ع 98، ص 145؛ نبيل خالد، نزار قبّاني شاعر المرأة والسياسة؛ إيليا الحاوي، نزار قبّاني شاعر المرأة ؛ صبري العسكري، نزار قبّاني والثورة العربية، ص 72.

الفصلُ الثَّاني: الرُّؤى السِّياسِيَّة

المَبْحَثُ الأوَّل: الوَطَنُ وخُلَاصاتُ رأيِ نِزارٍ فِيهِ

المَبْحَثُ الثَّاني: القَضِيَّةُ الفِلسَطِينِيَّةُ وخُلَاصاتُ رأيِ نِزارٍ فِيهَا

المَبْحَثُ الثَّالث: انْعِكَاساتُ الوَاقِعِ السِّياسِيِّ عَلَى المُجْتَمَعِ العَرَبِيِّ

المَبْحَثُ الرَّابِع: الهُجُومُ عَلَى العَرَبِ وتَقْرِيعُهُمْ ... ومُبَرِّراتُ نِزار!!

المَبْحَثُ الخَامِس: وَقْفَةٌ مَعَ الجَدَلِ النَّقْدِيِّ حَوْلَ شِعْرِ نِزارٍ السِّياسِيِّ

المَبْحَثُ الأوَّل: الوَطَنُ وَخُلُصَاتُ رَأْيِ نَزَارٍ فِيهِ

لم يتوانَ نزارٌ عَنْ كَشْفِ الحَالَاتِ المَرَضِيَّةِ الَّتِي يُعَانِيهَا الوَطَنُ العَرَبِيُّ عَلَى المَسْتَوَى السِّيَاسِيِّ، مُشَخَّصاً كُلَّ حَالَةٍ، وَمُبَيِّناً الأَسْبَابَ الَّتِي أَسْهَمَتْ فِي تَفَاقُمِ المَرَضِ، وَمُقَدِّماً رُؤَاهُ إِزَاءَ كُلِّ الوَقَائِعِ وَالحَالَاتِ، الَّتِي رَبطَهَا أَوَّلًا وَأخيراً بِالفِكرِ العَرَبِيِّ الَّذِي قَادَ الأُمَّةَ إِلَى الهَزِيمَةِ، وَقَدِ شَرَعَ يَنْعِي العَرَبَ عَلَى المَسْتَوِيَّاتِ كَافَّةً، لِيَكْشِفَ عَن حَقِيقَةِ فِكرِنَا الَّذِي يُجَسِّدُهُ كَلامُنَا الَّذِي يَفْقَدُ مَضامِينَهُ، وَمَا نُجِدهُ مِنْ صُراخٍ وَغوغائيَّةٍ، وَهَجاءٍ وَشَتِيمَةٍ، وَلِيَكْشِفَ نَهايَةَ عَن فَشلِ الخِطابِ القومِيِّ فِي تَحْقِيقِ النَّصْرِ، يَقولُ:

أُنْعي لَكُمْ:

كلامنا المَثقوبَ كالأحذية القديمة

ومُفرداتِ العُهرِ، والهَجاءِ، والشَّتِيمَةِ ..

أُنْعي لَكُمْ ..

أُنْعي لَكُمْ ..

نَهايَةَ الفِكرِ الَّذِي قَادَ إِلَى الهَزِيمَةِ. (1)

فَلا عَجَبَ - إِنْ - لو خَسِرْنَا الحَرْبَ، لِأَنَّ حَرْبَنَا خِطاباتٌ جَوفاءُ، وَطَبْلَةٌ نَرَقُصُ عَلَى إِيقاعِها، وَتَعَلو أَصواتُنا، ثُمَّ نَفْقَدُ الإِيقاعَ، وَنَفْقَدُ أَصواتُنا، لِذا فَإِنَّ أفعالنا المُرْتَجلةَ فاقَمَتِ الأَزمَةَ، وَكانتِ سَبباً فِي زيادَةِ عَدَدِ اللاجِئِينَ بَعدَ حَرْبِ حُزَيْرانَ عَامَ أَلْفٍ وَتِسعِمائَةٍ وَسِبعَةٍ وَسِتِّينَ ... وَهَذا ثَمَنٌ باهضٌ دَفَعناهُ، لِأَنَّنا لا نَحْتَكِمُ إِلَى خِطابِ عِلْمِيٍّ مَوْضوعيٍّ، فَناحُنُ بِحَاجَةٍ إِلَى هَدْمِ بُنيَةِ العَقْلِ العَرَبِيِّ القائِمِ عَلَى الارتِجالِ، يَقولُ:

كَلَّفنا ارْتِجالُنا

خَمسينَ أَلْفَ خِيمَةٍ جَديدةً .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال السِّيَاسِيَّةُ الكَاملة، 71/3.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 79/3.

لذلك، كان لا بدّ لنزارٍ من تقديم موقفه الواضح، المُتمثّل في دَعْوَتِهِ الأُمَّةَ إلى الخروج من السُّرْدَابِ الذي طالما مَكَّنَتْ فيه، لتجديد أفكارها، والظُّهورِ بِمَظْهَرِ حَضَارِيٍّ أَمَامَ العَالَمِ، حتّى لا تُعَدَّ صِنْفًا آخَرَ مِنَ الكائِنَاتِ، يقولُ:

يا أصدقائي:

جَرِّبُوا أَنْ تَكْسِرُوا الأبوابَ

أَنْ تَغْسِلُوا أَفْكَارَكُمْ

وَتَغْسِلُوا الأَثوابَ

يا أصدقائي:

جَرِّبُوا أَنْ تَقْرُؤُوا كِتَابَ ..

وَأَنْ تَكْتُبُوا كِتَابَ .. (1)

ثُمَّ يُنَبِّئُنَا بِأَشَدِّ حَالَاتِ الضَّعْفِ التي اعترت الأُمَّةَ العَرَبِيَّةَ وقادتها إلى المَهَالِكِ، وقد رأى أَنَّ انتهاكَ الأعداءِ حُرْمَاتِ الوَطَنِ، وعدمَ الاكتراثِ لأمره هي كُبْرَى عِلَامَاتِ الضَّعْفِ ... والضَّعْفُ يقودُ إلى مزيدٍ مِنَ الضَّعْفِ، وَيُطَمِّعُ العَدُوَّ في انتهاكاتٍ أُخرى، فيتجاوزونَ كُلَّ الخُطُوطِ الحَمْرَاءِ، وَيَبْسُطُونَ أَيْدِيَهُمْ على كُلِّ المُحَرَّمَاتِ، يقولُ:

ما زالَ يكتبُ شِعْرَهُ العُذْرِيَّ، قَبَسٌ

واليهودُ تَسْرَبُوا لِغِرَاشِ لَيْلِي العَامِرِيَّةِ

حتّى كلابُ الحيِّ لم تَنبَحْ ..

ولم تُطَلِّقْ على الزَّانِي رِصَاصَةَ بُنْدَقِيَّةٍ (2)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسيّة الكاملة، 84/3.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 231/3.

وَتُنْتَهَكُ كُلُّ مَسَاحَاتِ الْوَطَنِ، وَلَا يَبْقَى لَنَا مِنْهُ إِلَّا مَا هُوَ موجودٌ فِي الْخِطَابَاتِ الْفَارِغَةِ، أَوْ مَا هُوَ مُصَوَّرٌ فِي الْقَصَائِدِ، وَالنُّصُوصِ الْمَسْرُحِيَّةِ، وَبَطَاقَاتِ السِّيَاحَةِ، أَوْ مَا نَسْمَعُهُ فِي أَنْشِيدِ الْأَطْفَالِ، وَهَذَا وَطَنٌ تَصَوَّرِيٌّ لَا نَمْلِكُهُ، يَقُولُ:

يا أيُّها الوطنُ المسافرُ في الخطابةِ ..

والقصائدِ .. والنُّصُوصِ الْمَسْرُحِيَّةِ ..

يا أيُّها الوطنُ الْمُصَوَّرُ فِي بَطَاقَاتِ السِّيَاحَةِ ..

والخرائطِ .. والأغاني الْمَدْرَسِيَّةِ .. (1)

إنَّهُ وَطَنٌ مُرَكَّبٌ مِنْ صُورٍ ضَخْمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِ الْخُطَبَاءِ، وَصُورٍ شِعْرِيَّةٍ أَوْ مَسْرُحِيَّةٍ يَرَسُمُهَا الشُّعْرَاءُ وَالْكَتَّابُ، وَرَسُومَاتٍ مُتَخَيَّلَةٍ فِي الْخَرَائِطِ وَالْبَطَاقَاتِ السِّيَاحِيَّةِ، وَنَشِيدٍ يُرَدِّدُهُ تَلَامِيذُ الْمَدَارِسِ ... وَهَذِهِ الصُّورُ لَا تُكْرَسُ وَطَنًا وَاقِعًا، تَجْتَمِعُ فِيهِ كُلُّ الْعَنَاصِرِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، إِنَّمَا هُوَ وَطَنٌ تَوَرَّعَتْ دَلَالَتُهُ عِبْرَ هَذِهِ الْأَلْفِ مِنَ الصُّورِ.

وَأَسْبَابُ أُخْرَى فَاقَمَتِ الْأَرْمَةَ هِيَ غِيَابُ الْحَاكِمِ الْعَرَبِيِّ عَنِ الْجُمْهُورِ، وَأَنْغِمَاسُهُ فِي مَلَذَاتِهِ، وَالرُّكُونُ إِلَيْهَا، وَهُنَا يُقَدِّمُ نَزَارٌ مَوْقِفَهُ لِلْحَاكِمِ الْعَرَبِيِّ عِبْرَ دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِنْخِرَاطِ بِالْجَمَاهِيرِ، لِيَرَاهُمْ عَنِ كِتَابٍ، وَيَقُومَ بِمَسْئُولِيَّاتِهِ الَّتِي قَوَامُهَا الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ، الَّذِي لَنْ يَتَحَقَّقَ إِلَّا إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ، يَقُولُ:

قُمْ يَا طَوِيلَ الْعُمُرِ ..

مِنْ حُجْرَتِكَ الْوَرْدِيَّةِ

وَافْتَحْ شَبَابِيكَ ..

لِلشَّمْسِ، وَلِلْعَدْلِ، وَلِلرَّعِيَّةِ

فَمَا رَأَى الشَّعْبُ مِنْ آخِرِ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ ..

هَلْ أَنْتَ حَقًّا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ؟

أُخْرِجْ إِلَى الشَّارِعِ يَا أَمِيرَنَا ..

وَاقْرَأْ .. وَلَوْ صَحِيفَةً يَوْمِيَّةً .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال السِّيَاسِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 3/239.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 3/257.

وَيُقَدِّمُ خُلاصَةَ رُؤْيَاهُ فِيمَا تُعَانِيهِ الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ خَلْجَاتٍ وَعِلَلٍ عَلَى الْمُسْتَوِيِّينَ: الْاجْتِمَاعِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ، مُوَاصِلًا رَفُضَهُ لِمَا جَرَى وَيَجْرِي فِي شَرْقِنَا الْعَرَبِيِّ، فَكَانَ تَأْكِيدُهُ عَلَى إِنْهَاءِ حَالَةِ الْمَرْأَةِ الْوَالِيْمَةِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَدْخُلَ الْمُعْتَرَكَ السِّيَاسِيَّ، وَتُشَارِكَ الرَّجُلَ فِي صُنْعِ الْقَرَارَاتِ الْمَصِيرِيَّةِ لِبَلَدِهَا، وَلَقَدْ كَانَتْ رُؤَاهُ الثَّوَابِتَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى رَفْضِ مَا يُخَالِفُهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَرْفُضُ الْفِكْرَ الْعَرَبِيَّ زَاعِمًا أَنَّهُ فِكْرٌ مَبَاحِثِيٌّ، يُلَاحِقُ النَّاسَ فِي غُرَفِ نَوْمِهِمْ، وَأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى الْقَمْعِ، وَيَعَكْسُ بِوَضُوحٍ وَجُوهَ الْأَنْظِمَةِ الدَّمِيمَةِ، الَّتِي فَقدَتْ مَنَاعَتَهَا الْمُكْتَسَبَةَ، فَأُصِيبَتْ بِكُلِّ الْأَمْرَاضِ، يَقُولُ:

لَا تَقْلَقِي عَلَيَّ .. يَا صَدِيقَتِي

فَكُلُّ مَا اقْتَرَفْتُهُ

أَنِّي مَنَعْتُ الْبَدْوَ أَنْ يَعْتَبِرُوا النِّسَاءَ كَالْوَالِيْمَةِ ...

وَكُلُّ مَا ارْتَكَبْتُهُ

أَنِّي رَفَضْتُ الْقَمْعَ ..

وَالْإِبْدَزَ (السِّيَاسِيَّ) ..

وَالْفِكْرَ الْمَبَاحِثِيَّ ..

وَالْأَنْظِمَةَ الدَّمِيمَةَ .. (1)

وَإِذَا كَانَ رَفْضُ الْوَأَقِعِ السِّيَاسِيَّ وَالْأَعْرَافِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يُعَدُّ اقْتِرَافَ جَرِيْمَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْشِفُ عَنْ عِلَاقَةِ الْمُتَقَبِّينَ بِالسُّلْطَةِ، الَّتِي لَا تَنْفَكُ تِلَاحِقُهُمْ، وَتَقْمَعُهُمْ أَيْنَمَا وَجِدُوا، لِأَنَّهُمْ يَكْشِفُونَ الْمَسْتَوْرَ، وَيُبَيِّهُونَ النَّاسَ إِلَى خُطُورَةٍ مَا يُحِيطُ بِهِمْ.

وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَا نُعَانِيهِ، وَمَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ حَتَّى نَبْلُغَ الْحَضَارَاتِ، وَذَلِكَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا إِذَا تَخَلَّصْنَا مِنْ عُقْدِنَا الَّتِي تُعَيْقِنَا، وَكَفَفْنَا أَيْدِينَا عَنِ الْبَطْشِ بِالنِّسَاءِ، وَأَوْقَفْنَا كُلَّ أَشْكَالِ الْقَمْعِ ... لَكِنَّ يَدَ الْبَطْشِ بَقِيَتْ مَمْدُودَةً فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الشُّعْرَاءُ، بَيِّدَ أَنَّهُ لَا يَنْفَكُ يَرِسُّمْ وَطَنًا ذَهْنِيًّا يَطْمَحُ إِلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَنْعَ لَنْ يُلْغِي الْفِكْرَةَ، وَلَنْ يُلْغِي مَا فِي الذَّهْنِ، يَقُولُ:

أَحَاوِلُ رَسْمَ مَدِينَةٍ حُبِّ

تَكُونُ مُحَرَّرَةً مِنْ جَمِيعِ الْعُقَدِ ..

فَلَا يَدْبَحُونَ الْأَنْوَتَةَ فِيهَا ..

وَلَا يَقْمَعُونَ الْجَسَدَ .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال السِّيَاسِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 326/6.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 348/6.

أُحَاوِلُ رَسْمَ بِلَادِ
سَرِيرِي بِهَا ثَابِتٌ
وَرَأْسِي بِهَا ثَابِتٌ
لَكِي أَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْبِلَادِ .. وَبَيْنَ السُّفُنِ ..
وَلَكِنَّهُمْ .. أَخَذُوا عُلْبَةَ الرَّسْمِ مِنِّي
وَلَمْ يَسْمَحُوا لِي ..
بِتَصْوِيرِ وَجْهِ الْوَطَنِ ... (1)

وفي هذا المقام يتنبأ بسقوط جميع الطغاة، وبقاء القصاصد العظيمة التي طالما تصدّوا لها، فليس هناك من قوة يمكنها أن تصدر أخيلة الشاعر، وأصواته، وكشوفاته، ووسائل تحليقه، ومهما حاولت، فإن الغلبة نهاية للكلمات، يقول:

ليس هناك سلطة
يمكنها أن تمنع الخيول من صهيلها
وتمنع العصفور أن يكتشف الآفاق
فالكلمات وحدها ..
ستربح السباق ... (2)

وإذا كان عرق الشعب ينتج شعراً، وإذا كانت أرغفة الخبز تنتج شعراً، وإذا كانت تتفجر على ألسنة المقهورين آلاف القصاصد ... فلا يمكن لسلطة مهما بلغت من القوة أن توقف هجوم الشعر، ولا يمكنها أن توقف إنتاج الخبز، ولن تستطيع منع الشمس من الإشراق، يقول:

انتظروا زيارتي ..
فالشعر يأتي دائماً
من عرق الشعب، ومن أرغفة الخبز،
ومن أقبية القمع ..
ومن زلازل الأعماق ..
مهما رفعتُم عالياً أسواركم
لن تمنعوا الشمس من الإشراق ... (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، 350/6.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 354/6.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 358/6.

المبحث الثاني: القضية الفلسطينية وخلصات رأي نزار فيها

لقد بدا لنزار أن الحديث مع الكبار - من يسمون أنفسهم كباراً - لن يجدي نفعاً، فرأى أن يوجه الحديث للصغار، مقدماً العديد من الرؤى المعبرة عن فهمه العميق لحقيقة ما يجري، وقد برزت لديه القضية الفلسطينية كواحدة من أهم القضايا، فجعل يئبئ الصغار بحقيقة ما حدث في فلسطين، وما ينبغي عليهم القيام به في المستقبل، مُشدداً على استمرار التذكير وعدم النسيان، ذلك أن بقاء الذاكرة يعني حضور القضية، وعدم التراخي مع تقادم الزمن، يقول:

فليذكر الصغار ..

العرب الصغار حيث يوجدون

من ولدوا منهم، ومن (سيولدون)

قصة إرهابية مجنونة

يدعوها (راشيل)

حلت محل أمي الممددة

في أرض بيارتنا الخضراء في الجليل

أمي أنا الذبيحة المستشهدة .. (1)

إن نزاراً يخاطب الصغار ضمن رؤيا واعية، تكشف عن عمق إحساسه بأهمية معرفة الصغار كل تفاصيل القضية، وإمساحهم جميع الخيوط التي تقودهم إلى الثورة، وخوض معارك التراب بعد إدراكهم أهمية التراب، وإحساسهم العالي بقيمته. فمن اهتمامه بعرض التفاصيل، وعرض القضية من جميع جوانبها قوله:

... ومات والدي الرحيم

بطلقة سددها كلب من الكلاب

عليه، مات والدي العظيم

في الوطن العظيم

وكفه مشدودة شداً إلى التراب (2)

¹- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، 32/3.

²- نزار قباني، م.ن.، 38/3.

والتفاصيلُ تشكّلُ الإرهاساتِ، التي تقوّدُ فيما بعدُ إلى النّضالِ والثّورةِ، من أجلِ استعادةِ التُّرابِ والكرامةِ، وفعلُ النّضالِ يأتي نتيجةً للإحساسِ العاليِ بقيمةِ التُّرابِ، يقولُ:

فليذكرِ الصَّغارُ

العربُ الصَّغارُ حيثُ يُوجدون

منَ وُلدوا منهمُ .. ومنَ سيُولدونُ

ما قيمةُ التُّرابِ

لأنَّ في انتظارِهِمُ معركةُ التُّرابِ ... (1)

وهو يرى أن قوتنا تكون عبر بناء جيل قوي، يمتلك عزمًا وفكرًا عميقًا، يُعيدُ صياغةَ التاريخِ، جيلٌ لا يُسامحُ، لا يرضخُ، لا ينافقُ، يقولُ: "من الأجنّةِ نبدأ، من الأطفالِ نبدأ، من الأفكارِ التي لا أفكارَ لها، من الأشكالِ التي لا أشكالَ لها، من كلِّ الأنقياءِ الذين لم يتسمّموا بعدُ بمواعظنا وأقوالنا المأثورةِ، من كلِّ الأبرياءِ الذين لم تأخذُ جماعهمُ شكلاً نهائياً، وظهورهمُ شكلاً مُحدوداً"⁽²⁾. ويقول:

نريدُ جيلاً غاضباً

نريدُ جيلاً يفلحُ الآفاقُ

وينكشُ التاريخَ من جذوره

وينكشُ الفكرَ من الأعماقِ

نريدُ جيلاً قديماً مُختلفَ الملامحِ

لا يغفرُ الأخطاءَ .. لا يُسامحُ

لا يَنحني .. لا يعرفُ النِّفاقَ ..

نريدُ جيلاً، رائداً، عملاقاً .. (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السّياسيّة الكاملة، 38/3.

²- منير العكش، أسئلة الشعر، ص 202.

³- نزار قبّاني، م.س.، 95/3.

وهكذا، فإن نزاراً قد عوّل كثيراً على الأطفال، بعد أن أدرك أن كمّيات الأفيون في دماء الكبار لا يمكن إزالتها، فرأى أن الأطفال هم القادرون على تبديد أوهامنا، وقتل الأفيون في رؤوسنا، بما يملكون من إرادة تمكنهم من كسر القيود ... ثم ينتبأ بمستقبل يُصبح فيه الصغار رجالاً أقوياء، تجمعهم كلمة واحدة، ويوحّد خطاهم طريقاً واحداً، هو طريق التحرير، واستعادة الأرض، يقول:

لمن قتلتم في فلسطين صغاراً سوف يكبرون ..
للأرض .. للحارات .. للأبواب .. أولاد سيكبرون
وهؤلاء كلهم ..

في أي .. أي لحظة
من كل أبواب فلسطين سيدخلون .. (1)

ثم إن هؤلاء الأطفال الذين اتخذوا من الحجر سلاحاً، سوف يُحقّقون إنجازات كبرى، وسوف يكون لهم شأن عظيم، وسوف يجتاحون الجيل الرديء، جيل الخيانات، وجيل الدعارة، يقول:

آه .. يا جيل الخيانات ..
ويا جيل العمولات ..
ويا جيل النفايات ..
ويا جيل الدعارة ..
سوف يجتاحك - مهما أبطأ التاريخ -
أطفال الحجارة .. (2)

وهم أنفسهم الذين سوف يُحطّمون جيروت الاحتلال، ويقطعون رأس أفعى الوهم الإسرائيليّة، بما يملكون من شجاعة ويقين وعزيمة صلبة لا تلين، يقول:

يرمي حجراً ..
أو حجرين ..
يقطع أفعى إسرائيل إلى نصفين ..
يمضغ لحم الدبابات،
ويأتينا ..
من غير يدين (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسيّة الكاملة، 184/3.

²- نزار قبّاني، ثلاثيّة أطفال الحجارة، ص 23.

³- نزار قبّاني، م.ن.، ص 43.

وأخيراً، فإنّ نزاراً يَصِلُ إلى قناعةٍ بأنّ خيارَ الفِلسطِينيّ في صِراعِهِ مَعَ إسرائيلَ، هوَ خيارُ القُوَّةِ، وأنّ السَّلَامَ مَعَ إسرائيلَ أمرٌ مُستحيلٌ، وجميعُ البروتوكولاتِ التي تَجْرِي بشأنِهِ مَسْرَحِيَّةٌ، والحديثُ عن العدلِ مَسْرَحِيَّةٌ، والطريقُ إلى فلسطينَ يَمُرُّ عبرَ بُنْدُقيَّةٍ ... لذلكَ، يرى أَنَّهُ عِنْدَمَا تُصْبِحُ البُنْدُقيَّةُ - بالنسبةِ للفِلسطِينيّ - قَضِيَّةً أو شُغلاً شاغِلاً، تغدو القَضِيَّةُ الفِلسطِينِيَّةُ أمَّ القَضايَا، يقولُ:

قولوا لمن يسأل عن قضيتي ..
بارودتي .. صارت هي القضية .. (1)

وفدائيو الوطن هم الذين يعطون الوطن وزنه ومعناه، وهم الذين يزرعون حبوباً أو يزرعون الغماماً تحت أعدائهم، ومن دونهم لا يساوي الوطن شيئاً، يقولُ:

وَطَنِي!
يا أَيُّهَا الصَّدْرُ المَغْطَى بِالجِراحِ
وَطَنِي ..
مَنْ أَنْتَ؟ إِنْ لَمْ تَتَفَجَّرْ
تحتَ إسرائيلَ، صُنْدُوقَ سِلاحٍ .. (2)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسيّة الكاملة، 329/3.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 338/3.

المبحث الثالث: انعكاسات الواقع السياسي على المجتمع العربي

أثر السياسة على الشعوب العربية عموماً

لقد بلغت الشعوب العربية من المأساة مبلغاً عظيماً، وأكثر ما يدلُّ على عمق هذه المأساة هو غياب الفرح عن تلك الشعوب، حتى باتت تجهلُ. الأطفال ضاعت طفولتهم، وانتهكت حقوقهم، والأبواب كلها مغلقة، فلا تقدم ولا انطلاق، ومُحاربة الفكر مستمرة، يتبعها محاولات أخرى لإلغاء الإحساس لدى المواطنين، فكلُّ الأصوات مستهدفة، وكلُّ من يحاولون رفع أصواتهم مستهدفون، وقد يُطلق عليهم الرصاص، يقول:

نحنُ شعوبٌ تجهلُ الفرح
أطفالنا ما شاهدوا في عمرهم
قوسَ قزحٍ ..
هذي بلادٌ أفلتت أبوابها ..
وألغت التفكير عند شعبها
وألغت الإحساس ..
هذي بلادٌ تطلق النار على الحمام ..
والغمام ..
والأجراس ... (1)

حتى أن الواحد منا بات عاجزاً عن رسم وطن أو تخيله، لأن الوطن لم يبق وطناً، ولا نملك إلا صوراً للحزن وللمأساة، يقول:

يضع ابني أعلامه، وعلبة ألوانه أمامي
ويطلب مني أن أرسم له وطناً ..
تهتزُّ الفرشاة في يدي ..
وأسقطُ باكباً ... (2)

¹- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، 382/6.

²- نزار قباني، م.ن.، 120/6.

وَيَتَّضِحُ عُمُقُ الْهُوَّةِ فِي الْمُكَاشَفَةِ الَّتِي تُبْدِيهَا سَائِحَةٌ فَرَنْسِيَّةٌ فِي حِوَارِهَا مَعَ نِزَارٍ، يَقُولُ:

تَقُولُ لِي سَائِحَةٌ شَفَرَاءُ مِنْ فَرَنْسَا:

بِلَادِكُمْ أَجْمَلُ مَا شَاهَدْتُ مِنْ بُلْدَانٍ.

فَالْمَاءُ فِيهَا ضاحِكٌ ..

وَالوَرْدُ فِيهَا ضاحِكٌ ...

وَالخَوْخُ .. وَالرُّمَانُ ...

وَاليَاسَمِينُ عِنْدَكُمْ،

يُمَشِّطُ الشَّعْرَ عَلَى الْحَيْطَانِ ...

فَكَيْفَ فِي بِلَادِكُمْ ..

لَا يَضْحَكُ الْإِنْسَانُ؟؟ (1)

وَكَانَ نِزَاراً أَرَادَ أَنْ يَقُولَ - مِنْ خِلَالِ عَرْضِهِ قَوْلَ الْفَرَنْسِيَّةِ - إِنَّ الْمُسْكَلَةَ فِينَا، لَيْسَتْ فِي الْبُلْدَانِ، وَلَعَلَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ، لِيَجْعَلَنَا نَحْسُ بَعْمَقِ الْفَاجِعَةِ الَّتِي تَعِيشُهَا الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ، وَلِيَتَّضِحَ - بَعْدَ ذَلِكَ - الْفَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، الَّتِي لَا تَعَانِي مَا نَعَانِيهِ مِنْ قَهْرٍ وَاسْتِبْدَادٍ.

الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ تَحْتَ انْعِكَاسَاتِ الْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ

أَنْتَجَ الْعَصْرُ الْحَدِيثُ أَصْنَافاً مِنَ الشُّعْرَاءِ، مِنْهُمْ مَنْ بَرَعَ فِي الزَّخْرَفَةِ وَفِي صِنَاعَةِ الدُّمَى الشُّعْرِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَزَلَ نَفْسَهُ وَعَزَلَ شِعْرَهُ عَنِ عَامَّةِ النَّاسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقَ شِعْرَهُ بِالرُّمُوزِ؛ فَذَهَبَ رَوْنَقُهُ وَغَابَتْ عَنْهُ الْبَلَاغَةُ، وَغَدَا إِلَى الْعَتَمَةِ أَقْرَبُ، وَهُوَ لَأَيُّ يَرْفُضُهُمْ نِزَارٌ، وَيَرْفُضُ مَعَهُمْ كُلَّ شِعْرٍ، يَجْرِي مِثْلَ أَرْنَبٍ مَذْعُورٍ، لَا طُمُوحَ لَهُ وَلَا هَدَفَ، يَقُولُ: "لَمْ تَعُدِ الْكِتَابَةُ لَعِبَةً كِيمِيَاءٍ وَلِغَةِ، لَمْ تَعُدْ نِزَهَةً دَاخِلَ التَّشَابِيهِ وَالِاسْتِعَارَاتِ وَالْقَوَامِيْسِ" (2). وَيَقُولُ:

وَالدُّمَى .. وَالزَّخْرَفُ الْبَلْهَاءُ	ذَبَحْنَا الْفُسَّافِيسَاءَ عَصُوراً
قَاتَلْنَا الْقَصِيدَةَ الْكِيمِيَاءُ	نَرْفُضُ الشُّعْرَ كِيمِيَاءً وَسِحْرًا
مِنْ كَرِاسِيَّهِ، يُحْرَمُ الْبِسْطَاءُ	نَرْفُضُ الشُّعْرَ مَسْرَحاً مَلَكِيَاءُ
كَيْفَ تَسْطِيعُ أَنْ تَرَى الظُّلْمَاءُ؟	نَرْفُضُ الشُّعْرَ عَتَمَةً وَرُمُوزاً
لَا طُمُوحَ لَهُ وَلَا أَهْوَاءُ (3)	نَرْفُضُ الشُّعْرَ أَرْنَباً خَشَبِيَاءُ

1- نِزَارُ قَبَّانِي، الْأَعْمَالُ السِّيَاسِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 6/386.

2- نِزَارُ قَبَّانِي، الْأَعْمَالُ النَّثْرِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 7/430.

3- نِزَارُ قَبَّانِي، م.س.، 3/399-400.

ويُبرزُ السِّمَةَ التي يَشْتَرِكُ فيها قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْ شُعْرَاءِ اليَوْمِ، وهي سِمَةُ الضَّبَابِيَّةِ أو الكَلَامِ الفَوْضِيِّ، فَلَا يَتِمَكَّنُ قَارِئُ شِعْرِهِمْ مِنَ الإِمْسَاكِ بِمَعْنَى، أو الظُّفْرِ بِمَدْلُولِ لِسِيَاقٍ مِنْ سِيَاقَاتِهِمْ المُغْلَقَةِ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ مَعَ الفَرَاغِ، فَلَا يُلَامِسُونَ الوَاقِعَ، وَلَا يَعْنِي حُضُورَهُمْ إِلَّا مَا يَعْنِيهِ الغِيَابُ، يَقُولُ:

شُعْرَاءُ هَذَا اليَوْمِ، جِنْسٌ ثَالِثٌ فَالْقَوْلُ فَوْضِيٌّ .. وَالكَلَامُ ضَبَابٌ
يَتَكَلَّمُونَ مَعَ الفَرَاغِ .. فَمَا هُمْ عَجَمٌ إِذَا نَطَقُوا .. وَلَا أَعْرَابٌ
اللاهثونَ على هَواشِ عُمُرِنَا سِيَّانَ إِنْ حَضَرُوا، وَإِنْ هُمْ غَابُوا..(1)

وَهُمْ يُخَالِفُونَ بِذَلِكَ الوَظِيفَةَ الأَسَاسِيَّةَ لِلأَدبِ، يَقُولُ نَزَارٌ: "إِنَّ وَظِيفَةَ الفَنِّ - مُنْذُ رَجُلِ المَغَارَةِ حَتَّى عَصْرِ الإِلِكْتَرُونَ - هي المَلَامَسَةُ"(2).

وَقَدْ يَدَّعِي بَعْضُ الشُّعْرَاءِ أَنَّ الغَمُوضَ دَلِيلٌ عَلَى العُمُقِ، كَمَا فَعَلَ أدُونيسُ، يَقُولُ: "إِنَّهُ دَلِيلٌ عُمُقٍ وَغَنَى"(3). وَلَعَلَّهُ أبعَدُ عَنِ الحَقِيقَةِ، "فَلَيْسَ مِنْ طَبَعِ العُمُقِ أَنْ يَكُونَ غَامِضاً أبداً، إِنَّ أعمقَ أغوارِ البَحَارِ تَظْهَرُ بِجِلاءٍ لِلعينِ المَجْرَدَةِ مِنْ خِلالِ المَاءِ الصَّافِي، فِي حِينِ أَنْ شَبْرًا مِنَ المَاءِ العَكْرِ لَا يُسْبِرُ لَهُ غُورٌ وَلَا قَرَارٌ. فَالشُّعْرُ صَفَاءٌ، وَهُوَ أخيراً وَضُوحٌ وَغَنَى"(4).

لَمْ يَكُنْ رَفُضُ نَزَارِ صِنَاعِ الشُّعْرِ وَمُنْكَافِيهِ لِيَأْتِي مِنَ فَرَاغٍ، إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُقَدِّمَ رُؤَاةَ بَشَانِ الشُّعْرِ والشُّعْرَاءِ، وَلِيَضَعَ بَيْنَ أَيْدِينَا شِعْرَ العَصْرِ الَّذِي يُعْتَدُّ بِهِ، فَيُعْلِنُ أَنَّهُ سِلَاحٌ شَدِيدُ المَضَاءِ، وَأَنَّهُ ثَوْرَةٌ وَاكْتِشَافٌ، وَهُوَ شِعْرٌ يُعْبِرُ عَنِ أَحاسيسِ النَّاسِ وَغَضَبِهِمْ، وَيَسِيرُ مَعَ العَصْرِ، حَتَّى أَصْبَحَتْ آراءُ الشُّعْرَاءِ مِثْلَ آراءِ الأنبياءِ، يُصَلِّبُونَ مِنْ أَجْلِهَا، وَبَاتَ الفِدَائِيُّ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ الشُّعْرَ، وَمَنْ هُمْ دُونَهُ لَيَسُوا بِشُعْرَاءَ، يَقُولُ:

شِعْرُنَا اليَوْمِ يَحْفَرُ الشَّمْسَ حَفْرًا بِيَدَيْهِ .. فَكُلُّ شَيْءٍ مُضَاءٌ
شِعْرُنَا اليَوْمِ هَجْمَةٌ وَاكْتِشَافٌ لَا خُطُوطٌ كُوفِيَّةٌ .. وَجِدَاءٌ ..
كُلُّ شِعْرٍ مُعاصِرٍ .. لَيْسَ فِيهِ غَضَبُ العَصْرِ، نَمَلَةٌ عَرَجَاءُ
يُصَلِّبُ الأنبياءَ مِنْ أَجْلِ رَأْيِ فَلَمَّاذَا لَا يُصَلِّبُ الشُّعْرَاءُ؟
الفِدَائِيُّ وَحَدَهُ .. يَكْتُبُ الشُّعْرَ وَكُلُّ الَّذِي كَتَبْنَا هُرَاءُ ..(5)

¹- نزار قباني، الأعمال السِّياسِيَّةُ الكاملة، 638/3.

²- نزار قباني، الأعمال النَّثْرِيَّةُ الكاملة، 360/7.

³- أدونيس، زمن الشُّعْرَاءِ، ص 76.

⁴- رضوان الشَّهَال، فِي الشُّعْرِ وَالفنِّ وَالجَمالِ، ص 35 .

⁵- نزار قباني، م.س.، 402-400/3.

إِنَّ "كُلَّ كَلِمَةٍ لَا تَأْخُذُ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ شَكْلَ الْبُنْدُقِيَّةِ، تَسْقُطُ فِي سَلَّةِ الْمُهْمَلَاتِ، وَتَصِيرُ عِلْفًا لِلْحَيَوَانَاتِ ... كُلُّ كِتَابَةٍ عَرَبِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ لَا تَرْتَفِعُ إِلَى مَرْتَبَةِ إِطْلَاقِ النَّارِ، تَتَحَوَّلُ إِلَى نَقْشٍ هَيروغليفِيٍّ عَلَى قَبْرِ فِرْعَوْنِيٍّ قَدِيمٍ"⁽¹⁾. لذا، جَعَلَ نَزَارٌ يُشَدِّدُ عَلَى ثَوْرِيَّةِ الشَّعْرِ، وَيُرَى أَنَّ أَجْبَنَ الشَّعْرِ هُوَ الَّذِي لَا يَرْكَبُ حِصَانَ الْغَضَبِ، يَقُولُ:

الشَّعْرُ لَيْسَ حَمَامَاتٍ نُطِيرُهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، وَلَا نَائِيًا وَرِيحَ صَبَا
لَكِنَّهُ غَضَبٌ طَالَتْ أَظَافِرُهُ مَا أَجْبَنَ الشَّعْرَ، إِنَّ لَمْ يَرْكَبِ الْغَضَبَا⁽²⁾

وَالْقَصِيدَةُ - عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ - كِتَابَةٌ بِرِمَشِ الْعَيْنِ، لَا بِالْيَدِ، وَهِيَ نَارٌ تَحْرِقُ أَعْمَارَ الشُّعْرَاءِ الثُّورِ، الَّذِينَ تَغْدُو حَيَاتُهُمْ حَطْبًا وَكَبْرِيئًا، يَقُولُ:

إِنَّ الْقَصِيدَةَ لَيْسَ مَا كَتَبْتُ يَدِي لَكِنَّهَا مَا تَكْتُبُ الْأَهْدَابُ ..
نَارُ الْكِتَابَةِ أَحْرَقَتْ أَعْمَارَنَا فَحَيَاتُنَا الْكَبْرِيئُ وَالْأَخْطَابُ⁽³⁾

وَهِيَ إِعْلَانٌ لِلْعَصِيانِ، وَانْقِلَابٌ عَلَى الطُّغَاةِ، وَثَوْرَةٌ عَلَى الطُّغْيَانِ، وَهِيَ زَلْزَلَةٌ لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، إِنَّهَا التَّغْيِيرُ الْجَدْرِيُّ، الَّذِي يُصَنَّفُهَا مَعَ قَائِمَةِ الثُّورِ، إِذْ "لَا قِيَمَةَ لِشَعْرِ، لَا يُحْدِثُ ارْتِجَاجًا فِي قَشْرَةِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ، وَلَا يُحْدِثُ تَغْيِيرًا فِي خَرِيْطَةِ الدُّنْيَا، وَخَرِيْطَةِ الْإِنْسَانِ"⁽⁴⁾. يَقُولُ:

يَا أَصْدِقَائِي:

مَا هُوَ الشَّعْرُ إِذَا لَمْ يُعْلِنِ الْعَصِيانَ؟
وَمَا هُوَ الشَّعْرُ إِذَا لَمْ يُسْقِطِ الطُّغَاةَ .. وَالطُّغْيَانِ؟
وَمَا هُوَ الشَّعْرُ إِذَا لَمْ يُحْدِثِ الزَّلْزَالَ
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ؟⁽⁵⁾

¹- نزار قبّاني، الأعمال النثرية الكاملة، 431/7.

²- نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، 425/3.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 639/3.

⁴- نزار قبّاني، م.س.، 261/7.

⁵- نزار قبّاني، م.س.، 37/6.

وهي تصدّ لمن يفهرون الشعوب، وهذا تأكيد آخر على ثورية القصيدة، وطابعها الهجومي، يقول:

إذا كان شعري لا يتصدى
لمن يسلخون جلود الشعوب
فلا كان شعري ... (1)

لقد بات من الواضح أن نزاراً يحملُ تصوّراً خاصاً حول شعر العصر الذي يُعتدُّ به، يقول: "إنه - في تصوّري - عمليةٌ انقلابيةٌ، يُخططُ لها ويُنفذها إنسانٌ غاضب، ويريدُ من ورائها تغييرَ صورة الكون" (2).

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، 172/6.

²- نزار قبّاني، الأعمال النثرية الكاملة، 260/7.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الهُجُومُ عَلَى العَرَبِ وَتَقْرِيعُهُمْ ... وَمُبَرِّراتُ نِزار!!

الهُجُومُ عَلَى الحُكَّامِ العَرَبِ

أعلنَ نزارُ هُجُومَهُ الأوَّلَ عَلَى الحُكَّامِ العَرَبِ، مُسْتَقْبِحاً الإقاماتِ الطَّوِيلَةَ التي يقضونها وَقُوفاً عَلَى مَسارِحِ التَّمثِيلِ والكَذِبِ أَمامَ الشُّعُوبِ العَرَبِيَّةِ، مُتَمَنِّياً رَحيلَ كُلِّ المُمَثِّلِينَ الذينَ غَدَتْ أَدوارُهُمْ مَعْلُومَةً لِلنَّاسِ ... وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الخرابِ، وَكَثْرَةِ الحَرائِقِ التي داهَمَتْ كُلَّ مَساحاتِ الوَطَنِ، إِلاَّ أَنَّ المُمَثِّلِينَ لَمْ يَكْفُوا عَنِ التَّمثِيلِ، وَبَقُوا عَلَى مَسرِحِ الكَذِبِ والصُّراخِ، الذي احترَقَتْ أركانُهُ، يَقولُ:

مَتى سَتَرَحَلونَ؟

المَسرَحُ إنهارَ عَلَى رُؤوسِكُمْ

مَتى سَتَرَحَلونَ؟

والنَّاسُ فِي القاعَةِ يَشْتُمونَ .. يَبْصِقونَ .. (1)

ثمَّ يَكشِفُ جانِباً مِنْ أَدوارِهِم القَبِيحَةَ، دَوْرِهِم التِّجاريِّ فِي قَضِيَّةِ فِلَسطينَ، ودَوْرِهِم فِي تَكْرِيسِ الضَّعْفِ، وَجَعَلَ الأَرْضِ العَرَبِيَّةَ مَباحَةً لأعدائنا، يَقولُ:

كانتْ فِلَسطينُ لَكُمْ

دِجاجةً، مِنْ بِيضِها التَّمِينِ تَأْكُلونَ ..

كانتْ فِلَسطينُ لَكُمْ

قَميصَ عِثمانَ الَّذي بِهِ تُتاجِرُونَ

طوبى لَكُمْ ..

عَلَى يَدَيْكُمْ أَصْبَحَتْ حُدُودنا

مِنْ وَرَقٍ ..

فَأَلْفُ تُشكَرونَ .. (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال السِّياسِيَّة الكاملة، 110/3.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 110/3-111.

وكيفما كانت المصيبة، فإن غاية ما يقدمه الزعماء العرب خطابات جوفاء، لا تسمن ولا تغني من جوع... فمن أجزائنا الممزقة الضعيفة دخل اليهود أرضنا، وتغلغلوا في ثيابنا، وزعماء العرب لا زالوا يكررون الشعارات نفسها: "نحن راجعون"، ولا يملكون سواها، يقول:

تغلغل اليهود في ثيابنا

و"نحن راجعون" ..

صاروا على مترين من أبوابنا

و"نحن راجعون" ..

ناموا على فراشنا ..

ونحن " راجعون" .. (1)

بل إن هؤلاء الكاذبين مثلوا دور الأنبياء... حملوا ثيابهم، لكنهم لم يحملوا رسالة! وظلوا يقرصون ويركبون على الشعوب أمداً طويلاً، يقول:

الأنبياء الكاذبون ..

يقرصون ..

ويركبون على الشعوب

ولا رسالة .. (2)

إن زعماء العرب لم يقدموا لشعوبهم عملاً واحداً يستوجب شكرهم، لم يفكروا في استعادة جزء من أجزاء أرضنا المسلوقة، ولم يحاولوا استعادة شجرة من أشجار فلسطين، لكنهم احترقوا الجرائم، وأتقنوا قتل الأبرياء، إنهم لم يوجهوا البنادق في الاتجاه الصحيح، بل إن كل البنادق في زمانهم انحرفت عن مسارها، وصار رصاصها يفجر رؤوسنا، يقول:

لو أنهم من ربع قرن حرروا ..

زيتونة ..

أو أرجعوا ليمونة

ومحووا عن التاريخ عاره

¹- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، 113/3.

²- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، 75/4.

لَشَكَرْتُ مَنْ قَتَلوكَ .. يا بَلْقَيْسُ ..

يا مَعْبُودَتِي حَتَّى النُّمَالَةِ ..

لَكِنَّهُمْ .. تَرَكَوا فِلَسْطِيناً

لِيُغْتالُوا غَزَالَةً!! ... (1)

ويأخذُ هجومُ نزارٍ على القادةِ العَرَبِ مَنحَى آخَرَ، فَقَدْ شَرَعَ يَكشِفُ ما تَرَتَّكِبُهُ أَيْدِيهِمْ في السِّرِّ والعلَنِ، فَهُمُ المَسْؤُولونَ عَن ضِياعِ البِلادِ، وَهُمُ الذِينِ شَوَّهوا وَجَهَ التَّارِيخِ، وَخَرَّبوا كُلَّ ما وَرِثَناه عَن العُرُوبَةِ، وَأَضَحَتْ العُرُوبَةُ على أَيْدِيهِمْ مَسْخاً فاقِداً كُلَّ مَقَومَاتِهِ، يَقولُ:

رَهَنوا الشَّمْسَ لَدَى كُلِّ المُرَابِينِ،

وباعُوا بالمَلاليمِ القَمَرَ ..

كَسَرُوا سَيْفَ عُمَرَ ..

شَنَقُوا التَّارِيخَ مِنْ رِجْلِيهِ ..

باعوا الخَيْلَ، وَالكوْفِيَّةَ البَيْضَاءَ

باعوا أَنْجَمَ اللَّيْلِ، وَأوراقَ الشَّجَرِ ..

سَرَقُوا الكَحْلَ مِنَ العَيْنِ،

وباعوا في عيونِ البَدَوِيَّاتِ الحَوْرَ (2)

الهجومُ على العَرَبِ عُموماً

لَقَدْ أعلَنَ نزارٌ ضيقَهُ وَتَعَبَهُ الشَّدِيدَ، لَفَرَطِ ما راعَهُ مِنْ مَشاهِدِ العَرَبِ وَالعُرُوبَةِ الحَافِلَةِ بالتَّقلُّباتِ وَالتَّنَاقُضاتِ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُمْ لَيَسُوا عَرَباً، لَوْلا قِطْعُ مِنَ النِّيَابِ تُمَيِّزُهُمْ عَن سائِرِ الأُمَّمِ، يَقولُ:

فَهَلِ العُرُوبَةُ لَعَنَةٌ وَعِقابُ؟

فَعَلَى الخَريِطَةِ كُنَّا أَغرابُ ..

وَأَعِيدُ .. لَكِنِ ما هُنَاكَ جَوابُ

ما كُنْتُ أَحسَبُ أَنَّهُمُ أَغرابُ .. (3)

أنا يا صديقَهُ مُتَعَبٌ بِعُرُوبَتِي

أَمْشِي على وَرَقِ الخَريِطَةِ خائِفاً

أَتَكَلِّمُ الفُصْحى أَمامَ عَشِيرَتِي

لَوْلا العَباءاتُ التي التَفَّوا بِها

¹- نزار قَبَّاني، الأعمالُ الشَّعْرِيَّةُ الكاملة، 4/78-79.

²- نزار قَبَّاني، الأعمالُ السِّيَاسِيَّةُ الكاملة، 3/491.

³- نزار قَبَّاني، م.ن.، 3/641.

وهذا قد يعني أننا غدونا أقواماً بلا عروبة، وقد غابت عنا النخوة، وأصبح الإنسان في وطنه غريباً، مسكوناً بالخوف. وقد يعني أن الشارع العربي يعاني تحولاً صعباً وخطيراً لدى الجماهير العربية المستسلمة للخوف، والتي إن بقيت خائفة، فإن أمر البلاد العربية سوف يزداد سوءاً، لذلك جعل نزار ينكر خوفهم الشديد، ويوبخهم على ما هم عليه من الخنوع والذل، يقول:

لماذا الجماهير ..

بين المحيط ، وبين الخليج،
تجوب الأزقة كالمقط الخائفة
وأين هو الشارع العربي
الذي كان يمضغ لحم الطعاع
ويخترع العاصفة؟ (1)

ويعيب على الأمة العربية انغراسها في مكانها، وانغلاقها على الحضارات، وقد كتبت أبصارها عن التأمل، وألغت التفكير فيما يحدث من حولها ... ويقسو على الجماهير العربية، دون أن يسلم نفسه عنها، فيتحدث بلهجة يصل التوبيخ فيها حد الهجاء فمن كون الجماهير جمادات أخذت شكل الحجر، إلى كونها كائنات تقبل الأرجل التي تدوسها، ومن حيث ترتدي جلد النمر، إلى كونها حماماً، يقول:

لقد مرّ عشرون عاماً علينا
لقد مرّ عشرون عام
ونحن توأببت مصنوعة من رخام
نبايع أي عقيد يجيء ..
ونلعق جزمة أي نظام ..
ونلبس جلد النمر
ونحن حمام. (2)

¹- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، 257/6.

²- نزار قباني، م.ن.، 261/6.

ولأدعياء الثقافة في شرقنا العربيّ أساليبيهم في تقديم الطاعة والولاء لأصحاب السلطنة، فواحد يملك زاوية يومية، وآخر له عمود، وكلاهما يصلي للحاكم مع فاروق في الأسلوب. وما دام الحاكم في شرقنا يجد من يصوره، ويحتمل قبحة، وينشر فكره، ويشاركه في حروبه الإعلامية، وانتصاراته الكاذبة، فهو - لا محالة - سيبقى جاثماً على صدورنا، يقول:

هذي بلاد
يمنح الكتاب فيها صوتهم
لسيد المتقين عنتره.
يجملون قبحة.
ينشرون فكره.
ويقرعون الطبل
في حروبه المظفرة ... (1)

فليس صعباً أن نجد مسوغاً لهزائمنا المتواليّة، ما دام الشعب قطعاً يعيش في حضائر النظام، وما دامت حروبنا إشاعةً وتمثيلاً تنتجها وزارات الإعلام. لذلك، فإننا نتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية في صياغة أنظمتنا العربيّة المستبذّة، يقول:

هل النظام، في الأساس، قاتل؟
أم نحن مسؤولون
عن صناعته النظام؟ (2)

والمكافأة الكبرى التي يُقدّمها القادة العرب للشعب المسلوب هي موت مجانيّ بالجملة في حرب الإشاعات، موت رخيص يطوى فيه الإنسان، ويغدو في غياهب النسيان، وبلوغ الغاية لدى القائد الساديّ - في مخبئه - تزوين الخراب، وقلب الهزيمة إلى انتصار ... إنه الخطاب الإعلامي الذي يسعى إلى تشويه ثقافة الانتصار، وتجميل الهزيمة لدى المواطنين، يقول:

نموت .. مقهورين، منبذين، ملعونين ..
منسيين كالكلاب ..
والقائد الساديّ في مخبئه
يُفلسف الخراب ... (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السياسيّة الكاملة، 549/6.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 509/6.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 521/6.

أَوْ تَكُونُ الْمُكَافَأَةُ حَرْبًا رَخِيصَةً نَمَوْتُ فِيهَا لِيَحْيَا النِّظَامُ، نُسْحَقُ فِيهَا وَتَرْتَفِعُ تَمَاثِيلُ النِّظَامِ! يَقُولُ:

وَلَوْ مَوْتُنَا كَانَ مِنْ أَجْلِ وَقْفَةٍ عِزٍّ

وَتَحْرِيرِ أَرْضٍ ..

وَتَحْرِيرِ شَعْبٍ ..

سَبَقْنَا الْجَمِيعَ إِلَى جَنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ

وَلَكِنَّهُمْ .. قَرَّرُوا أَنْ نَمُوتَ ..

لِيَبْقَى النِّظَامُ ..

وَأَعْمَامُ هَذَا النِّظَامِ ..

وَأُخْوَالُ هَذَا النِّظَامِ ..

وَتَبَقِيَ تَمَاثِيلُ مَصْنُوعَةٍ مِنْ عَجِينٍ!! (1)

وما الذي سيجنيه الشعب في البلاد العربية؟ وما هي النتيجة المرتقبة؟ إننا حتماً لن نجد صعوبة في الإجابة، لأن الواقع المعيش يقدم لنا كل الإجابات، ولعل المشهد الأكثر وضوحاً للعيان هو انهيار جذر الوطن واحداً بعد الآخر، وتورط الناس، على اختلاف فئاتهم، في حصاد ما زرعه حكامهم ... لكن المفارقة الكبرى هي التناغم الحاصل بين زيادة الخراب، وبين زيادة الكذب السياسي وتضليل الناس، وتزوير الحقائق عبر وسائل إعلام الدولة، يقول:

تَنهَارُ بِنَايَاتُ التَّارِيخِ جِدَارًا بَعْدَ جِدَارٍ ..

وَأَنَا أَتَأَمَّلُ مَا تَعْرِضُهُ الشَّاشَةُ

مِنْ أَخْبَارِ الْعَارِ ..

وَمُذِيعِ الدَّوْلَةِ، يُعْلِنُ دُونَ حَيَاءٍ،

" أَنَا قَدْ حَقَّقْنَا النَّصْرَ ..

بِفَضْلِ نِضَالِ الْحِزْبِ ..

وَفَضْلِ الضُّبَّاطِ الْأَحْرَارِ " !! (2)

¹- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، 6/603.

²- نزار قباني، م.ن.، 6/590.

صَوْتُ الْجَاهِلِيَّةِ .. وَصَوْتُ الْحَاكِمِ !!

لا يستطيعُ الحاكمُ في شرقنا العربيِّ أن يَمْنَحَ شَعْبَهُ هَامِشاً مِنْ حُرِّيَّةِ التَّعْبِيرِ، لِأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ، لَأَكَلَتْهُ
الكَلِمَاتُ لِفَرْطِ خَطَايَاهُ، لِذَلِكَ فَإِنَّ أَشَدَّ مَا تُعَانِيهِ الْمُجْتَمَعَاتُ الْعَرَبِيَّةُ هُوَ مُلَاحَقَةُ عَسْكَرِ الْحَاكِمِ
الكَلِمَاتِ، حَتَّى بَاتَتِ الْكَلِمَةُ تَحْتَاجُ إِلَى تَصْرِيحِ دُخُولِ، فِيمَا أَنْ تَمُرَّ وَإِمَّا أَنْ تُصَادَرَ، وَيُصَادَرَ مَعَهَا
فَمُ الشَّاعِرِ ... وَلِأَنَّ شَرَّ الْبَلِيَّةِ مَا يُضْحِكُ أَوْ يُبْكِي - لا فَرْقَ - فَإِنَّ الْكُفْرَ بِالْحُكُومَةِ إِنَّهُ وَجْرِيْمَةٌ
تَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ. فِي بِلَادِنَا أَنْ تَكْتُبَ ضِدَّ اللَّهِ - تَعَالَى - مَسْمُوحٌ! أَمَّا أَنْ تَكْتُبَ ضِدَّ الْحُكُومَةِ مَمْنُوعٌ!
يقولُ:

في بلادي،
مُمْكِنٌ أَنْ يَكْتُبَ الْإِنْسَانُ ضِدَّ اللَّهِ ..
لا ضِدَّ الْحُكُومَةِ ..
فاعذروني، أيُّها السادة،
إِنْ كُنْتُ ضَحِكْتُ ..
كان في وُدِّي أَنْ أَبْكِي ..
ولكنِّي ضَحِكْتُ .. (1)

وسياسةُ المَنعِ إِنَّمَا تُعَبِّرُ عَن خَوْفِ الْحُكَّامِ الْعَرَبِ مِنْ سُيُوفِ الْكَلِمَاتِ، وَلِهَذَا يَبْذُلُونَ جُهْدًا عَالِيًا فِي
التَّصَدِّي لِلشَّعْرِ، وَصَرَفِ النَّاسِ إِلَى بَدَائِلٍ أُخْرَى، تَكْفُفُ أَبْصَارَهُمْ عَن فَسَادِ أَنْظِمَتِهِمْ، يَقُولُ:

هُنَاكَ بِلَادٌ
تُشْرَعُ أَبْوَابُهَا لِلْبَغَايَا
وَتَرْفُضُ أَنْ تَمْنَحَ الشُّعْرَ،
تَأْسِيرَةً لِلسَّفَرِ (2)

¹- نزار قبَّاني، الأعمال السياسيَّة الكاملة، 264/3.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 319/6.

النَّاسُ فِي بِلَادِنَا لَا صَوْتَ لَهُمْ، وَمُعَادِلَةُ الشَّعْبِ لَدِينَا تُسَاوِي صِفْرًا، وَقَائِدُ عَرَبِيٍّ مُصَابٌ بِجُنُونِ الْعِظَمَةِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَارِسَ كُلَّ مَوَاهِبِهِ، وَيَنْفَرِدَ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ، وَإِذَا كَانَ الشَّعْبُ لَا يُسَاوِي شَيْئًا، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْحَاكِمَ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ قَدْ اِحْتَلَّ عُقُولَهُمْ، وَجَعَلَ يَفْكِّرُ عَنْهُمْ، وَالْغَى آرَاءَهُمْ، وَصَارَ رَأْيُهُ الْمُعَادِلَ لِكُلِّ الْآرَاءِ، يَقُولُ:

أَصَوَاتُنَا مَكْتُومَةٌ.

شِفَاهُنَا مَخْتُومَةٌ.

شُعُوبُنَا لَيْسَتْ سِوَى أَصْفَارٍ ...

إِنَّ الْجُنُونَ وَحَدَهُ،

يَصْنَعُ فِي بِلَادِنَا الْقَرَارَ ... (1)

أَمَّا كَلِمَةُ الْحَاكِمِ فَتَأْخُذُ أَبْعَادًا أُخْرَى، تُخْرِجُهَا مِنْ دَائِرَةِ الْكَلَامِ الْمُتَّفَجِّرِ عَلَى أَلْسِنَةِ عَامَّةِ النَّاسِ، فَهِيَ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا وَاحِدًا مِنْ ثَلَاثَةِ اِحْتِمَالَاتٍ، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- كَذِبٌ وَخِدَاعٌ يُضِلُّ الْحَاكِمُ بِهِ الْجُمْهُورَ، وَيُظِلُّ الْجُمْهُورُ يَجْرِي وَرَاءَهُ دُونَ أَنْ يَبَالِ شَيْئًا، يَقُولُ:

الْلَفْظَةُ طَابَةُ مَطَّاطٍ

يَقْذِفُهَا الْحَاكِمُ مِنْ شُرْفَتِهِ لِلشَّارِعِ

وَوَرَاءَ الطَّابَةِ يَجْرِي الشَّعْبُ

وَيَلْهَثُ كَالْكَلْبِ الْجَائِعِ ... (2)

2- أَلْفَاظٌ مُسْتَهْلَكَةٌ مُهْتَرِئَةٌ، تَتَكَرَّرُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكُتَّابِ، وَالصَّحَافِيِّينَ، وَشَيْوِخِ السَّلَاطِينِ، يَقُولُ:

الْلَفْظَةُ جَسَدٌ مُهْتَرِئٌ

ضَاجِعَةٌ الْكَاتِبِ، وَالصُّحُفِيُّ،

وَضَاجِعَةٌ ...

شَيْخُ الْجَامِعِ .. (3)

¹- نزار قبّاني، الأعمال السِّياسِيَّةُ الكاملة، 524/6.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 299/3.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 300/3.

بل إنَّ وكالاتِ الأنباء، والصُّحفَ الكُبْرَى، والصُّحفَ الصُّغْرَى تَعْمَلُ على نقلِ كَلامِ الحاكِمِ مُضَخَّمًا، وهي - في مُعظمِ الأحيان - مُلْكٌ لِلدَّوْلَةِ، يقولُ:

الحاكِمُ يَضْرِبُ بالطَّبَلَةَ
وجميعُ وزاراتِ الإعلامِ تَدُقُّ على ذاتِ الطَّبَلَةَ
وجميعُ وكالاتِ الأنباء تُضخِّمُ إيقاعَ الطَّبَلَةَ (1)

3- وسيلةُ إسكاتٍ وتتوييمٍ، يستخدمُها حَكَّامُ الشَّرْقِ في تخديرِ الجماهيرِ، وهي في الوقتِ نفسِه غِطاءً، يستخدمونها في إخفاءِ فُحْشِهِم، يقولُ:

اللَّفْظَةُ إِبْرَةُ مورفينِ
يحقنُها الحاكِمُ للجُمُهورِ
من القَرْنِ السَّابِعِ ..
اللَّفْظَةُ في بلدي امرأةٌ
تحترفُ الفُحْشَ من القَرْنِ السَّابِعِ .. (2)

ويرى نزارٌ أنَّ الدَّوْلَةَ في شَرْقِنَا العَرَبِيِّ قد بلغتْ مِنَ الفُحْشِ مَبْلَغًا عَظِيمًا، حتَّى صارتْ ضَلِيعَةً في
إِتْقَانِهِ، فَرِيدَةً في صُنْعِ الكَبَائِرِ، يقولُ:

لا أَحَدٌ يَرُقْصُ بالكَلِماتِ سوى الدَّوْلَةُ ..
لا أَحَدٌ يَزْنِي بالكَلِماتِ،
سوى الدَّوْلَةِ!! (3)

¹- نزار قبَّاني، الأعمالُ السِّيَاسِيَّةُ الكاملة، 6/128.

²- نزار قبَّاني، م.ن.، 3/300.

³- نزار قبَّاني، م.ن.، 6/132.

الرؤى والمبررات ... !!

لا يَنْبَغِي لعَاقِلٍ أَنْ يَفْهَمَ هُجُومَ نِزارٍ عَلَى العَرَبِ فَهَمًّا خَاطِئًا؛ فَيَحْسَبُ أَنَّهُ طَعَنٌ لَهُمْ وَكُرَّةٌ لِلعُرُوبَةِ، فَهَذِهِ شُبُهَةٌ أَزَالَهَا نِزارٌ عَن نَفْسِهِ، يَقُولُ:

زَعَمُوا أَنَّنِي طَعَنْتُ بِلَادِي وَأَنَا الحُبُّ كُلُّهُ وَالوَقَاءُ (1)

بَلْ إِنَّ نِزاراً يُفَسِّرُ هُجُومَهُ عَلَى العَرَبِ بِالحُبِّ البَصِيرِ، وَالغَيْرَةِ عَلَى العُرُوبَةِ بَعِيداً عَنِ العَوَاطِفِ العَمِيَاءِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ نَابِعٌ مِنْ صِدْقِ انْتِمَائِهِ لِلوَطَنِ، وَحُبِّهِ الشَّدِيدِ لِلأَرْضِ العَرَبِيَّةِ، يَقُولُ:

إِنَّ حُبِّي لِلأَرْضِ حُبٌّ بَصِيرٌ وَهَوَاهُمْ عَوَاطِفُ عَمِيَاءُ (2)

وَيُبَرِّرُ هُجُومَهُ وَشُرُوعَهُ فِي كَيْ جُلُودِ العَرَبِ بِالضَّرُورَةِ المُلِحَّةِ لِحُدُوثِ الشِّفَاءِ، فَالْكَيْ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ لِكَبْحِ المَرَضِ، وَاسْتِئْصَالِ الوَرَمِ، وَإيقَافِ النَّزيفِ، وَإِنَّمَا يَعْمَدُ الإِنْسَانُ إِلَى اخْتِيَارِ الوَسِيلَةِ الأَكْثَرِ إِيلاماً؛ لِعِلْمِهِ بِنِجَاعَتِهَا، يَقُولُ:

إِنَّ أَكْنَ قَدْ كَوَيْتُ لَحْمَ بِلَادِي فَمِنَ الكَيْ .. قَدْ يَجِيءُ الشِّفَاءُ (3)

وَمِنْ هُنَا، جَعَلَ نِزارٌ يَفَسِّرُ غَضَبَهُ، وَصِراخَهُ، وَشُرُوعَهُ فِي جِلْدِ العَرَبِ، يَقُولُ: "اعتبرُ الجِلْدَ عَنِ طَرِيقِ الشَّعْرِ مِنْ أَخْفِ العُقُوبَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِعَالَمِ عَرَبِيٍّ، مَا زَالَ مِنْذُ حَزيرانَ 1967 يَتَفَرَّجُ عَلَى المُسَلِّسَاتِ التِّلْفِزيونِيَّةِ، وَيَتَعَاطَى حُبُوبَ النُّومِ، وَنَشْرَاتِ الأَخْبَارِ، وَمُورَفِينِ (مَا يَطْلُبُهُ المُسْتَمْعُونَ).. فَإِذَا كُنْتُ قَدْ صرَخْتُ بِوَجْهِهِ هَذَا الصُّرَاخَ الَّذِي وَصَلَ إِلَى حَدِّ الهَمْجِيَّةِ، فَلأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَصْرُخُ عَادَةً إِلا حِينَ تَكُونُ مِسَاحَةُ الجُرْحِ أَكْبَرَ مِنْ مِسَاحَةِ الطَّعْنَةِ، وَكَمِيَّةُ دَمِوَعِهِ أَكْبَرَ مِنْ مِسَاحَةِ عَيْنِهِ" (4).

¹- نزار قبّاني، الأعمال السِّيَاسِيَّةُ الكَامِلَةُ، 407/3.

²- نزار قبّاني، م.ن.، 409/3.

³- نزار قبّاني، م.ن.، 410/3.

⁴- نزار قبّاني، الأعمال النَّثْرِيَّةُ الكَامِلَةُ، 434-433/7.

وَالْقُبُولُ بِالْهَوَانِ يُؤَلِّدُ مَزِيدًا مِنَ الْهَوَانِ وَالذُّلِّ، وَرَفَضُ الذُّلِّ يَأْتِي بِالْبَدِيلِ الَّذِي تَطْلُبُهُ النُّفُوسُ الْأَبْيَةُ،
التي تُؤَلِّدُ عَلَى أَيْدِيهَا الْكِرَامَةَ وَالْعِزَّةَ، وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا الْفَهْمِ، يُبَرِّرُ نِزَارٌ رَفَضَهُ، يَقُولُ:

إِنِّي رَافِضٌ زَمَانِي، وَعَصْرِي وَمِنَ الرَّفْضِ، تُؤَلِّدُ الْأَشْيَاءُ⁽¹⁾

إِنَّ الْحَرْبَ مَعَ الْقُبْحِ لَهَا مَا يُبَرِّرُهَا عِنْدَ نِزَارٍ، فَهُوَ يَحْمِلُ رُؤْيَا بَعِيدَةَ الْمَدَى، جَعَلَتْهُ يُبْصِرُ جَمِيعَ
الْخِيَارَاتِ الْمُمْكِنَةِ، وَقَدْ كَانَتْ خَلْطَةً جِدَارِ الْقُبْحِ آخِرَ الْخِيَارَاتِ الْمُرْتَقَبَةِ، يَقُولُ:

إِنِّي قَرَّرْتُ أَنْ أُدْخَلَ

فِي حَرْبٍ مَعَ الْقُبْحِ ..

وَلَا رَجْعَةَ عَنْ هَذَا الْقَرَارِ ..

فَإِذَا لَمْ أُسْتَطِعْ إِيقَافَ جَيْشِ الرُّومِ

أَوْ زَحْفِ التَّتَارِ

وَإِذَا لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَقْتُلَ الْوَحْشَ

فَحَسْبِي أَنِّي

أَحْدَثْتُ ثَقْبًا فِي الْجِدَارِ ...⁽²⁾

وَلَقَدْ رَأَى أَنْ قُوَّتَهُ فِي مُوَاجَهَةِ الْقُبْحِ تَتَحَقَّقُ بِخُرُوجِهِ عَلَى غَرَائِزِ الْقَطِيعِ، وَبِذَلِكَ يَمْتَلِكُ مَلَامِحَ
مُخْتَلَفَةً، وَيُصْنِحُ فَتَاكًا جَارِحًا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى التَّأْثِيرِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، وَإِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ،
يَقُولُ:

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرًا

مُخْتَلِفَ الْمَلَامِحِ ..

وَفَتَاكًا .. وَجَارِحًا ..

فَأَخْرُجْ عَلَى غَرَائِزِ الْقَطِيعِ.⁽³⁾

¹- نزار قباني، الأعمال السَّيَّاسِيَّةُ الْكَامِلَةُ، 412/3.

²- نزار قباني، م.ن.، 339/6.

³- نزار قباني، م.ن.، 340/6.

يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ نِزَارًا قَدْ عَوَّلَ كَثِيرًا عَلَى الشُّعْرِ فِي إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ، وَإِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الشُّعْرُ بُعْدًا ثَوْرِيًّا، فَلَقَدْ رَأَى أَنَّهُ بِالشُّعْرِ يُمَكِّنُ أَنْ يُعِيدَ مَفْقُودَاتِ الْوَطَنِ عَبْرَ رَسْمِهِ رَسْمًا صَحِيحًا، حَتَّى يُبْصِرَهُ النَّاسُ بِشَكْلِهِ الْحَقِيقِيِّ، وَبِذَلِكَ يَتَّوَحَّدُونَ مَعَهُ فِي اسْتِعَادَةِ عُشْبِ الْأَرْضِ الْمَسْلُوبِ، وَضَوْءِ النُّجُومِ، وَلَوْنِ الْبِحَارِ. وَهُوَ يَرَى أَنَّ تَرْمِيمَ الْحَطَامِ، وَإِعَادَةَ الْحَيَاةِ مِنْ تَحْتِهِ أَمْرٌ مُمَكِّنٌ، يَقُولُ:

أُحَاوِلُ بِالشُّعْرِ ..

أَنْ أُسْتَعِيدَ مَرَايَا النَّهَارِ.

وَعُشْبَ الْحُقُولِ،

وَضَوْءَ النُّجُومِ،

وَلَوْنَ الْبِحَارِ.

وَأُسْتَنْبَتِ الْقَمَحَ مِنْ تَحْتِ هَذَا الدَّمَارِ. (1)

وَانْطِلَاقًا مِنْ كَوْنِ الشُّعْرِ رِسَالَةً إِنْسَانِيَّةً، تُجَسِّدُ رُؤْيَ الشَّاعِرِ، وَتَحْمِلُ مَوَاقِفَهُ، فَإِنَّ نِزَارًا يَثِقُ بِقُوَّةِ تِلْكَ الرِّسَالَةِ فِي إِنْهَاءِ عَصْرِ التَّخْلُفِ، وَالتَّاسِيْسِ لِعَصْرِ جَدِيدٍ، تَتَجَلَّى فِيهِ الْقِيَمُ الَّتِي نَبَّهَ إِلَيْهَا، يَقُولُ:

أُحَاوِلُ بِالشُّعْرِ ..

إِنْهَاءَ عَصْرِ التَّخْلُفِ،

حَتَّى أُؤَسِّسَ عَصْرًا جَدِيدًا

مِنَ الْوَرْدِ وَالْجُلْنَارِ. (2)

وَلَفَرَطٍ مَا يَضْطَرُّمُ فِي نَفْسِهِ مِنْ حَرَائِقِ، فَإِنَّهُ لِيَكَادُ يَشْعُرُ بِأَنَّ حَرَائِقَهُ (قَصَائِدَهُ) سَتُفَجِّرُ عَصْرًا، وَتُغَيِّرُ كَوْنًا، وَتُشْعِلُ فِي الْأَرْضِ نَارًا، وَلَعَلَّ إِحْدَى مَهَمَّاتِ الشُّعْرِ الْكُبْرَى هِيَ إِشْعَالُ الْحَرَائِقِ، يَقُولُ: "لَا قِيَمَةَ لَفْنٌ لَا يُحْدِثُ ارْتِجَاجًا فِي قَشْرَةِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ .. وَلَا قِيَمَةَ لِقْصِيدَةٍ لَا تُشْعِلُ الْحَرَائِقَ فِي الْوُجْدَانِ الْعَامِ .." (3). وَيَقُولُ:

أُحَاوِلُ بِالشُّعْرِ ..

تَفْجِيرَ عَصْرِ

وَتَغْيِيرَ كَوْنٍ ..

وَإِشْعَالَ نَارٍ .. (4)

1- نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، 6/605.

2- نزار قبّاني، م.ن.، 6/606.

3- نزار قبّاني، الأعمال النثرية الكاملة، 7/418.

4- نزار قبّاني، م.س.، 6/607.

المبحث الخامس: وقفةٌ أخيرةٌ معَ الجدَلِ النقديِّ حولَ شعرِ نزارِ السِّيَاسِيِّ

لقد عمدَ بعضُ النُقَّادِ إلى تجريدِ نزارٍ من شعرِهِ السِّيَاسِيِّ، والمُطالِبَةِ بإهمالِهِ إهمالاً مطلقاً لِرِداءَتِهِ، وتناقضِهِ معَ طبيعَةِ الشُّعْرِ⁽¹⁾. وقد حاولَ آخرونَ تعريتهُ من الالتزامِ بالقضاياِ الوطنيَّةِ والقوميَّةِ، يقولُ شاكِرُ النَّابلسيِّ: "إنَّ الشُّعْرَ السِّيَاسِيَّ بالنِّسْبَةِ لنزارٍ لم يكنْ موقِفاً في يومٍ من الأيَّامِ ... فنزارٌ كما هو في المرأة، هو في السِّيَاسَةِ مُصمَّمٌ قصائدٌ، يُشَبِّهُ إلى حدِّ كبيرٍ مُصمِّمِي الأزياءِ ..."⁽²⁾.

وقد ذهبَ النَّابلسيُّ إلى أبعدَ من ذلكَ حينَ قال: "إنَّ نزارَ قِبَّاني على مرِّ أربعينَ عاماً لم تكنْ لديهُ قضِيَّةٌ يُدافعُ عنها دفاعَ الشُّهداءِ، بقدرِ ما كانتْ لديهُ أوراقٌ لعبِ رابحةٍ، يطرحُها أو يرميها أمامَ القُرَّاءِ العربِ، في كلِّ مرحلةٍ أو في كلِّ مناسبةٍ"⁽³⁾.

ويتفقُ محمدٌ مصطفىُّ هُدَّارةٌ معَ النَّابلسيِّ، إذ يرى أنَّ شعرَ نزارِ الحزيرانيِّ مجردٌ جوازِ سفرٍ يعبرُ به إلى الجمهورِ، وهو وسيلةٌ يعمدُ إليها من أجلِ الوصولِ إلى الشهرةِ التي يتحرَّقُ إليها⁽⁴⁾.

وقد وقفَ فريقٌ آخرٌ من النُقَّادِ موقِفاً مُختلفاً، ورأوا في شعرِ نزارِ السِّيَاسِيِّ ما لم يُبصرهُ الفريقُ الأوَّلُ، تقولُ فدوى عبَّاسٌ: "إنَّ دفترَ نزارِ السِّيَاسِيِّ ناصعٌ نقيٌّ ... وصوتهُ الشُّعريُّ أبرزَ العوراتِ، وتبيَّنَ الكسورَ التي أصابتْ الأُمَّةَ العربيَّةَ والمجتمعَ العربيَّ، إنَّه في حالةِ صراعٍ مشهديٍّ بينَ ما هو كائنٌ، وما يجبُ أن يكونَ"⁽⁵⁾.

وعدَّ بعضُ الباحثينَ ما جاءَ بهِ النَّابلسيُّ، وهُدَّارةٌ، وغيرُهُما ضرباً من المزايداتِ المَهزوزةِ التي لا تستندُ إلى الموضوعيَّةِ، فكانَ نزارٌ عندهم من أكثرِ الشُّعراءِ الذين أوجعهم الواقعُ العربيُّ، فانفجرَ شعرُهُ حمماً مُقاتلةً، لتؤكدَ وطنيَّتهُ، وصدقَ انتمائه إلى العروبةِ، وحرصه على مُقدِّراتِ الأُمَّةِ⁽⁶⁾.

¹- يُنظر: جهاد فاضل، نزار قِبَّاني - الوجه الآخر، ص 64؛ أحمد قبَّش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 642.

²- شاكِرُ النَّابلسيِّ، الضوء واللعب، ص 477.

³- شاكِرُ النَّابلسيِّ، م.ن.، ص 481.

⁴- يُنظر: محمدٌ مصطفىُّ هُدَّارةٌ، دراسات في الأدب العربي الحديث، ص 133-134.

⁵- فدوى عبَّاسٌ، نزار قِبَّاني شاعر هذا العصر، ص 353.

⁶- يُنظر: علي العرود، جدليَّة نزار قِبَّاني في النِّقدِ العربيِّ الحديث، ص 154؛ نبيل خالد، نزار قِبَّاني شاعر المرأة

والسِّيَاسَةِ، ص 95.

وذهب آخرون إلى القول بأن نزاراً من أكثر المُلتزمين إخلاصاً للتراث، وأنَّ شعره يُعبِّرُ عن إحساسه بالأوجاع المُختلفة من أحوال الأُمّة، ويؤكدون على بلوغه المُستوى المطلوب من العمق والمسؤولية، إذ لم يُقصر شعره على الحثّ على مقاومة الاحتلال الصُّهيوّنيّ، وإنما قدّم شعراً تناول فيه أمراضنا الاجتماعيّة والسّياسيّة والفكريّة، بالقدر الذي يُؤكِّد صدقته وشجاعته وإيجابيّة مواقفه من قضايا العروبة، وعلى رأسها القضية الفلسطينيّة⁽¹⁾.

أمّا بخصوص اللغة القاسية التي استخدمها نزار في هزّ الوجدان العربيّ، وتقريع الأُمّة العربيّة، فقد وجدت لها مُسوِّغاتٍ عند كثيرٍ من النُّقاد والباحثين. يرى عبد العزيز شرف أنَّ الشاعِر "لا يكتبُ عن شماتة، بل يكتبُ عن ألمٍ، ونزيفٍ، وحُسن نيّة، ورغبة في أن يَهْزَّ الواقع العربيّ المليء بالأخطاء، القابل للهزيمة والانكسار، لعلنا نستطيع أن نخلق واقعاً جديداً، أرقى وأصلب، وأكثرَ قابليّةً في مواجهة المصاعب والأزمات"⁽²⁾.

أخيراً أقول: إنّ قسوة نزار على العروبة أمرٌ تسوّغه المحبّة والشعور بالضيّق مما يحدث، ولهذا تُصبحُ القسوة وسيلةً، لا غايةً، لأنَّ الغاية إيجاد العروبة، وبعثها مُضيئةً من قلب الظلام، وإعادة الحياة إلى العُشب العربيّ الذابل، يقول:

فإذا صرختُ بوجه من أحببتهم فلَكِي يعيش الحُبُّ والأحبابُ
وإذا قسوتُ على العروبة مرّةً فلقد تضيقُ بكُلِّها الأهدابُ
فلربّما تجدُ العروبة نَفْسَهَا ويضيءُ في قلبِ الظلامِ شهابُ
ولقد تطيرُ من العقالِ حمامةٌ ومن العباءة تطلعُ الأعشابُ⁽³⁾

¹- يُنظر: خالد البرادعي، الغناء الأبدّي، ص 20؛ رجاء النقّاش، ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء، ص 157؛

ميرفت دهّان، نزار قُبّاني والقضية الفلسطينيّة، ص 69.

²- عبد العزيز شرف، نزار والمواقف العربيّة، ص 41.

³- نزار قُبّاني، الأعمال السّياسيّة الكاملة، 3/646-647.

الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة، لا بد أن نُلخِّصَ أهمَّ ما توصلتُ إليه من نتائج، وهي على النحو الآتي:

أولاً- استثمرتُ الدراسةُ فلسفةً نقديةً حديثةً، هي فلسفةُ نظريةِ التفكيك، ضمنَ طرحٍ سعتُ إلى إيضاحه، وإزالةِ ما أحاطَ به من غموضٍ.

ثانياً- أفادتُ الدراسةُ من إجراءاتِ فلسفةِ التفكيك، لترتقيَ إلى أفقٍ تطبيقيٍّ، مفتوحٍ أمامَ قراءاتٍ واسعةٍ وغيرٍ مُنتهيةٍ.

ثالثاً- كشفتُ القراءاتُ التفكيكيةُ عن أبعادٍ أخرى في شعرِ نزار، هي تلكَ الخلاصاتُ والرؤى التي تحملها قصائدهُ، حتى بدا من السهلِ إِبصارُها، وإِبصارُ الأيديولوجياتِ التي ينطوي عليها شعرُهُ.

رابعاً- أثبتتُ الدراسةُ تنوعَ الرؤى، وقُوَّةَ الأيديولوجياتِ، التي تحملها قصائدُ نزارِ الشعريَّةِ.

خامساً- جمعتُ الدراسةُ ما تناثرَ من قيمٍ عليا، عبرَ حصيلةِ شعريَّةٍ مُمتدَّةٍ، حتى أضحي من اليسيرِ الوقوفُ على مجموعاتِ القيمِ، التي شكَّلتْ موضوعاتِ الدراسةِ.

لذلك، أوصي بِعَمَلِ دراسةٍ مُقارِنَةٍ بينَ شاعرَينِ أو أكثر، في واحدٍ من الموضوعاتِ التي أنتجتْها الدراسةُ. كذلك أوصي بالتوسُّعِ في دراسةِ موضوعِ الصِّمْتِ في الشعرِ، والاستفادةِ ممَّا تُقدِّمهُ نصوصُ نزارٍ في هذا الموضوعِ الرَّشيقِ.

وللَّهِ الحَمْدُ ...

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر:

1- عناني، محمد، المصطلحات الأدبية الحديثة؛ معجم إنجليزي - عربي، ط 1، بيروت: مكتبة لبنان، 1996.

2- قبّاني، نزار:

أ - الأعمال السياسية الكاملة، بيروت: منشورات نزار قبّاني، 1993، ج 3، 6.

ب - الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت: منشورات نزار قبّاني، 1993، ج 1، 2، 4، 5.

ج - الأعمال النثرية الكاملة، ط 1، بيروت: منشورات نزار قبّاني، 1993، ج 7.

د - ثلاثية أطفال الحجارة، ط 1، بيروت: منشورات نزار قبّاني، 1988.

ثانياً - المراجع:

1- إبراهيم، عبد الله، التفكيك: الأصول والمقولات، ط 1، الدار البيضاء: منشورات عيون المقالات، 1990.

2- أدونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشعراء، ط 2، بيروت: دار العودة، 1978.

3- البرادعي، خالد محي الدين، الغناء الأبدى؛ دراسات ونصوص، ط 1، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977.

4- جبرا، جبرا إبراهيم، النار والجوهر؛ دراسات في الشعر، ط 1، بيروت: دار القدس، 1975.

- 5- الحاوي، إيليا، نزار قبّاني شاعر المرأة، بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت .
- 6- حبيب، بروين، تقنيّات التّعبير في شعر نزار قبّاني، ط 1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 1999.
- 7- الحلق، يحيى محمد، قراءة في أدب نزار قبّاني، ط 1، دمشق: دار علاء الدين للنّشر والتّوزيع والترجمة، 2001.
- 8- حمّاد، سهيلة زين العابدين، من عمق الرّوح وقلب الفكر؛ دراسات في الأدب والتّاريخ، ط1، السّعوديّة: الدّار السّعوديّة للنّشر والتّوزيع، 1985.
- 9- دهّان، ميرفت، نزار قبّاني والقضيّة الفلسطينيّة، ط 1، بيروت: بيسان للنّشر والتّوزيع والإعلام، 2002.
- 10- زيادة، أحمد، نزار .. عاشق المرأة، ط 1، القاهرة: مركز الرّاية للنّشر والإعلام، 1995.
- 11- ساعي، أحمد بسّام، حركة الشّعْر الحديث في سورّيّة من خلال أعلامه، ط 1، دمشق: دار المأمون للتّراث، 1978.
- 12- سعد الله، محمد سالم، الأسس الفلسفيّة لنقد ما بعد البنيويّة، سوريا: دار الحوار، 2007.
- 13- السنّوسي، محمّد بن علي، من أحاديث السنّوسي، ط1، السّعوديّة: منشورات نادي جازان الأدبي، 1990.
- 14- شرف، عبد العزيز، نزار قبّاني والمواقف العربيّة؛ دراسة وقصائد، القاهرة: دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، د.ت .
- 15- الشّهال، رضوان، في الشّعْر والفن والجمال، بيروت: دار الأحد، د.ت .

- 16- صبحي، محي الدين، الكون الشعري عند نزار قبّاني، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 1977.
- 17- عبّاس، إحسان، اتّجاهات الشعر العربي المعاصر، ط 2، عمّان: دار الشروق للنشر والتّوزيع، 1992.
- 18- عبّاس، فدوى فؤاد، نزار قبّاني شاعر هذا العصر؛ دراسة نقدية، ط 1، القاهرة: دار المنار للطباعة، 2002.
- 19- العرود، علي أحمد، جدليّة نزار قبّاني في النقد العربي الحديث، الأردن: دار الكتاب الثقافي، 2008.
- 20- العسكري، صبري، نزار قبّاني والثّورة العربيّة، ط 1، القاهرة: الدار المصريّة اللبنانيّة، 1998.
- 21- العُكش، منير، أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها، ط 1، بيروت: المؤسسة العربيّة للدرّاسات والنّشر، 1979.
- 22- أبو علي، نبيل خالد، نزار قبّاني شاعر المرأة والسياسة، ط 1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1999.
- 23- عيّاشي، منذر، الكتابة الثّانية وفتحة المتعة، ط 1، الدّار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998.
- 24- فاضل، جهاد، نزار قبّاني - الوجه الآخر، ط 1، بيروت: مؤسّسة الانتشار العربي، 2000.
- 25- فوزي، مفيد، أنا و نزار؛ أطول قصيدة اعتراف، ط 1، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998.
- 26- قبّش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، ط 1، بيروت: دار الجيل، 1971 .

- 27- كمال الدّين، جليل، الشّعر العربي الحديث وروح العصر، ط 1، بيروت: دار العلم للملايين، 1964.
- 28- مصطفى، عادل، فهم الفهم؛ مدخل إلى الهيرمنيوطيقا: نظرية التّأويل من أفلاطون إلى جادامير، القاهرة: رؤية للنشر والتّوزيع، 2007.
- 29- موسى، خليل، جماليات الشّعريّة، دمشق: اتّحاد الكُتاب العرب، 2008.
- 30- النّابلسي، شاكر، الضوء واللّعبة؛ استكناه نقدي لنزار قبّاني، ط 1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 1986.
- 31- النّقاش، رجاء، ثلاثون عاماً مع الشّعْر والشّعراء، ط 1، الكويت: دار سعاد الصّبّاح، 1992.
- 32- هدّارة، محمد مصطفى، دراسات في الأدب العربي الحديث، ط 1، الرّياض: دار العلوم العربيّة للطباعة والنّشر، 1988.
- 33- الورقي، السّعيد، لغة الشّعْر العربي الحديث؛ مقوماتها الفنيّة وطاقتها الإبداعيّة، ط 2، القاهرة: دار المعارف، 1983.

ثالثاً - الدّوريات:

- 1- أسد، محمود محمّد، نزار قبّاني بين مطرقة وسندان النّقاد: آفاق المعرفة، سوريا، ع 14، أيلول، 1998.
- 2- بدن، جبار عودة، دلالات الصّمّت في شعر زهور دكسن: مجلّة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانيّة)، العراق، ع 1، 2013.
- 3- جُحّاء، ميشال، نزار قبّاني: مجلّة الفكر العربي، بيروت، ع 98، آذار، 1999.
- 4- السّامرائي، ماجد، خواطر وأفكار حول تجربة نزار قبّاني الشّعريّة: المجلة الثّقافيّة، عمّان، ع 44، 1998.

- 5- الشَّريف، جلال فاروق، نزار قبَّاني .. مُحاولة لتحديث الكلاسيكيَّة الجديدة: مجلَّة الموقف الأدبي، دمشق، ع 99، تمَّوز، 1979.
- 6- عبَّاس، عبد الجبَّار، دراسة جديدة في الشَّعر العربي المعاصر: مجلة الآداب، بيروت، ع11، تشرين ثاني، 1964.
- 7- ماضيَّة، بيانكا، معالم النَّفس عند نزار قبَّاني ما تزال تتفجَّر: مجلَّة الفكر العربي، بيروت، ع 82، خريف 1995م.
- 8- محراث، كاظم حمد، ظاهرة نزار قبَّاني الشُّعريَّة في الأدب العربي القديم: مجلة المعرفة، سوريا، ع 431، آب، 1999.
- 9- نُعيمة، نديم، الشَّعر والمرأة ونزار قبَّاني: مجلَّة الآداب، بيروت، ع 2، شباط ، 1958.
- 10- هدَّارة، محمَّد مصطفى، نزار قبَّاني وقصَّته مع الشَّعر: مجلَّة المُجتمع، الكُويْت، ع 186، شباط، 1974.

فَهْرَسُ الْمُحْتَوِيَّاتِ

الموضوعات	الصفحات
الإهداء	-
الإقرار	أ
شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ	ب
المُلخَص	ج - د
Abstract	هـ
المُقَدِّمَة	و - ز
التَّمهيد	3-1
الفصلُ الأوَّلُ: الرُّؤى الإنسانيَّة	51-4
المَبْحَثُ الأوَّلُ: في الحُبِّ	20-5
— الصَّمْت !!	8-5
— الحُبُّ المُنْحَرَكُ !	9-8
— الحُبُّ والمَسَافَات !	12-10
— طَبِيعَةُ الرَّجُلِ ... وَطَبِيعَةُ الْمَرَأَةِ !	15-13
— الحُبُّ عِبْرَ إِشَارَاتِ اليَدَيْنِ وَلُغَةِ الجَسَدِ !	17-15
— رُؤى وَأَبْعَادٌ أُخْرَى لِلحُبِّ في شِعْرِ نِزار	20-18
المَبْحَثُ الثَّانِي: في الْمَرَأَةِ	30-21
— الْمَرَأَةُ الأَثِيرَةُ لَدَى نِزار	23-21
— الْمَرَأَةُ الْقَضِيَّة	27-23
— الْمَرَأَةُ الخَائِفَةُ المُسْتَسْلِمَة	30-28

- 34-31 المَبْحَثُ الثَّالِثُ: في سيكولوجية المرأة
- 34-31 - المكوّنات النفسيّة للمرأة
- 42-35 المَبْحَثُ الرَّابِعُ: في الأثوثة
- 37-35 - الأثوثة رقيّ وحضارة
- 39-38 - الأثوثة صفة جامعة وأبعاد غير منتهية
- 42-40 - الأثوثة ثورة ودعوة إلى التحرر
- 47-43 المَبْحَثُ الخَامِسُ: في الجنس والمرأة والوطن
- 45-43 - معضلات الجنس في الثقافة العربيّة
- 47-46 - المرأة والوطن لدى نزار
- 51-48 المَبْحَثُ السَّادِسُ: الجدل النقديّ حول المرأة والحُبّ في شعر نزار
- 80 - 52 الفصلُ الثَّانِي: الرُّؤى السِّياسِيّة
- 57-53 المَبْحَثُ الأوَّلُ: الوطن وخلاصات رأي نزار فيه
- 61-58 المَبْحَثُ الثَّانِي: القضية الفلسطينيّة وخلاصات رأي نزار فيها
- 66-62 المَبْحَثُ الثَّالِثُ: انعكاسات الواقع السِّياسيِّ على المُجتمَع العربيِّ
- 63-62 - أثرُ السِّياسة على الشعوب العربيّة عموماً
- 66-63 - الشُّعْرُ والشُّعْرَاءُ تحت انعكاسات الواقع السِّياسيِّ

78-67	المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الهُجُومُ عَلَى العَرَبِ وَتَقْرِيعُهُمْ ... وَمُبَرَّرَاتُ نِزَارٍ!!
69-67	— الهُجُومُ عَلَى الحُكَّامِ العَرَبِ
72-69	— الهُجُومُ عَلَى العَرَبِ عُمُومًا
75-73	— صَوْتُ الجَمَاهِيرِ وَصَوْتُ الحَاكِمِ !!
78-76	— الرُّؤْيَى وَالمُبَرَّرَاتُ ... !!
80-79	المَبْحَثُ الخَامِسُ: وَقْفَةٌ مَعَ الجَدَلِ النَّقْدِيِّ حَوْلَ شَعْرِ نِزَارِ السِّيَاسِيِّ
81 الخَاتِمَةُ
86-82 قَائِمَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ
89-87 فَهْرَسُ المُحْتَوِيَّاتِ